محمود عرفات

الخسوف



Editions Al-Adab 1923
42 Opera Square - Cairo Tel: (202) 23900868

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت: ٢٣٩٠٠٨٦٨

الخســــــوف



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب

والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية

عرفان، محمود.

الخسوف: مجموعة قصصية / محمود عرفان .

ـط١. ـ القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠١٣.

ص ؛ ٢٠ سم.

تدمك: ٦ ٥٧٣ ٤٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - القصص العربية القصيرة

أ - العنوان

٨١٣,٠١

رقم الإيــــداع: ١٦٠٢٨ لسنة ٢٠١٣

الترقيم الدولي: I.S.B.N: 978-977-468-573-6

الناشر

مكتبة الآداب

علي حسن

٤٢ ميدان الأوبرا – القاهرة ت: ٢٣٩٠٠٨٦٨

e.mail:adabook@hotmail.com

محمود عرفات

الخسوف

مجموعة قصصية



42 Opera Square - Cairo Tel: (202) 23900868



٤٢ ميدان الأوبرا – القاهرة ت: ٢٣٩٠٠٨٦٨
البريد الإلكتروني: e.mail:adabook@hotmail.com

الإهداء

إلى روح المغفور له اللواء الركن عثمان كامل قائد اللواء الرابع عشر المدرع فى حرب أكتوبر المجيدة ١٩٧٣.

محمود عرفات

شكر واجب لقرائى الأوائل

أقدم شكرى العميق لقرائى الأوائل الذين طالعوا النص وهو مايزال جنينًا. لقد تلقيت آراءهم بامتنان، وأفدت من ملاحظاتهم القيمة. ومن حقهم أن أذكرهم مرتبين وفق أولية اطلاعهم على النص؛ وهم الأصدقاء:

الناقد الدكتور محمد سيد على عبد العال (محمد عمر)

الشاعر أحمد على منصور

القاص والروائى ابراهيم سعد الدين

الناقد سعود سالم

الشاعر والروائى صلاح والى

الدكتورة فاطمة فوزى

القاص والروائى فخرى أبو شليب

الروائية أمينة زيدان

الشاعر والمترجم عبده الريس

مرآة غائمة

رأتنى أمي فوقعت من طولها. لم أستطع أن أسرع نحوها. تصلبت فى مكاني على الكنبة بجوار أبي الذى هم بالنهوض. أخواتي البنات كنَّ يتحسسنني غير مصدقات. تركنني وقفزن لنجدة أمي التى أفاقت بعد ثوانٍ من الرعب. قمت نحوها. أحطتها بذراعي فتدفق نهر دموعها. تمتمات الحمد والدعاء الشاكر تخللت فيض الدموع. همت الصغيرة أن تطلق زغرودة. أخرستها نظرة أمي اللائمة وهى تنطق فى خفوت: عيب. وأومأت برأسها ناحية الشارع.

أختي الكبرى المتزوجة والتى تسكن على بعد شارعين، جاءت تجري حافية بلبس البيت. اقتحمت الباب وهى تهذي باسمي.

أخذتني فى صدرها وهى تنهنه. بدا أبى متماسكًا وهو يضغط كتفى بحنو: حمداً لله على سلامتك.

بعد لحظات امتلأت الدار بالمهنئين. لم يطاوعنى لسانى فاكتفيتُ بهمهمات خافتة لا أسمع منها غير: الحمد لله. كأني عازف عن الكلام، أو كأني أعانى من ألم فى فمي. شممت رائحة طبيخ ظننت أنى افتقدتُها للأبد. تعجبت.. من الذى يطبخ وكل نساء العائلة يحطن بي. قامت أمي كأنها أفاقت.. أمسكت بيدى واقتادتني إلى الحمام.

*

خلعتُ الأوفرول المتكلس بالعرق. خجلت من وسخ ملابسي الداخلية التى لم أجد وقتًا لتغييرها.. فاجأنى القائد.. استدعاني وناولني خطابًا موجهًا إلى المستشفى العسكري القريب من مدينتي. قرأتُ الخطاب مندهشًا. لم ينتظر أن أسأل. قال: الإجازات ممنوعة.. الخطاب يسمح لك بالمرور لأداء مأمورية رسمية.. أمامك أربع وعشرون ساعة بالثانية.. أنت المسئول عن نفسك حتى ترجع. حملتني السيارة الجيب إلى أقرب موقف سيارات. مضيت في

الطريق لا أعي شيئًا. اختلطت المشاهد أمام عيني وفى ذهني. كأني أعوم فوق وسادة من هواء مضغوط. لا أكاد أشعر بالطريق. وجوه من حولي بلا ملامح. هربت من أسئلتهم الصعبة فغطست فى بئر النوم الحنون.

*

تركت الماء يقوم بالعمل كله. لامس الماء الدافىء جلدي فارتعدت. فيض الماء أدهشني. تذكرت الزمزمية فى جرابها الكاكي، فأحسست بلساني يرطب شفتي. انتبهت للماء فخجلت. خرجت فإذا بأختي الصغرى تغسل الأوفرول فى وعاء تفيض منه رغوة الصابون. سمعتها تدندن: آخد حبيبي.. وعندما رأتني مضغت الحروف. قلت لها: كملي.. صوتك حلو. فارتفع صوتها بباقي المطلع: زرع فى القلب وردة. رأيتها تهتز مع إيقاع اللحن وحركة يديها تدعك السترة الكاكي. قامت لتنشر فحذرتها أمي: لا تنشري على السطح.. انشريه فى وسط الدار. اتجهت البنت إلى باب الوسط وفتحته في سكات.

*

صنعنا دائرة حول الطبلية الزاخرة. تعالت الضحكات والمعابثات. لمحت على وجه أبي ابتسامة رضا شجعت الجميع على التمادي. انهمكت أمي فى توزيع المنابات. أخجلني أنها اختصتني بأفضل قطعة من صدر ذكر البط.. ومنحتني قطعتي لحم محمر وفردة حمام. بدأت بي فقلت لها مشيرًا لأبي: الحاج الأول. قالت فى دلال: سيب الحاج فى حاله.. أنت العريس.

خفَتَ الكلام وتصاعدت جلبة الطعام. لم أقدر على مد يدي للأكل. لمحتُ أمي تنظر نحوي بامعان. مددت يدي ببطء. تناولت ملعقة أرز وقضمت قطعة من صدر البط. فوجئت بها تهتف وهى تكاد تبكي: مالك يا حبيبي؟ فيك إيه؟ قلت بسرعة: أحتاج وقت للتعود. سألتني فى دهشة: كأنك تأكل معنا لأول مرة؟ تصنعت الابتسام وأنا أمد يدي. لم أحس بشهية. رأيت أمي تكاد لا تأكل. قلت فى نفسي: هي دائمًا هكذا، لا تكمل أكلتها أبدًا. تقوم لأي سبب ولا ترجع. تهش البطة عن الكتاكيت الصغار، أو ترد على سائل، أو تطفيء الوابور، أو تُقلب أعواد الملوخية المنشورة على حصيرة.

قمت بعدها بقليل. بحثت عنها فوجدتها تجلس على حصيرة الصلاة تدعو بصوت خافت. الدموع تملأ وجهها الرائق بالرضا. جلست بجوارها وهى تفسح لي مكانًا. قالت: لم تأكل. قلت: الحمد لله.. نعمة. قالت: عامل إيه يا حبيبي؟ قلت: عال العال. قالت فى أسى: شفت نفسك فى المراية؟ قلت: لا.

*

شعرت ببوادر صداع. لم أحس بالصداع منذ بدأت الحرب. تمددت على الحصيرة قرب أمي. وضعت أمي وسادة صغيرة تحت رأسي فتهت فى النوم. قمت مفزوعًا لاأعرف أين أنا. انتصبت واقفا وهممت بالجري. شعرتُ بأيدي تمسك بي بقوة فأفقت. رأيت أمي وأخواتى يجذبنني لأجلس. انهرت على الأرض متمددًا على ظهري.

اغمضتُ عيني وكأنى رحت فى النوم. شريط الأحداث أخذ يكر فى غير نظام. سمعت أمي تهمس لأختي: أخوك سخن.. اعملي له كمادات. جاء أبي مسرعًا فقالت أمي: خير خير لاتقلق. سمعت أذان العشاء فلم أقدر على القيام. تمتمات أمي أصابتني

بخدر.. ورعشة الحرارة تهزنى هزًا خفيفًا. بين الفواق والنعاس سمعت صوتًا أعرفه. بعد لحظة أدركت أنه صوت امرأة عمي. اختنق صوتها وهى تردد كلمات تهنئة متفرقة. بدا أنها تقاوم إحساسًا طاغيًا بغير جدوى فانفجرت بالبكاء. فى تلك اللحظة تذكرت خيري ابن عمي. تتابعت دقات قلبي فى هلع.. إنه ضمن لواء الكباري فى شمال الإسماعيلية.. ولا أعرف عنه شيئًا.. ماذا أقول لو سألتني عنه؟

*

فتحت عيني على وجه أمي يعصف به الفرح، وصوت أبي يدندن لأم كلثوم: فى نور محياك الغنى. والبنات يرحن ويجئن فى أرجاء البيت. مع كل خطوة من خطواتهن يتعدل المشهد. كأنهن يلمسن الهواء فيتعطر.. ويُشرن فتتلون الحيطان وتلتمع الأرضيات. أشعلن المواقد ففاحت فى البيت رائحة الفطير بالسمن البلدي. وسمعت البنت الصغرى تدندن ببواقى أغنية الأمس: آخد حبيبي يا بلاش. خرجت إلى وسط البيت أتعثر فى عبارات البهجة

والفرح. استنشقت بعمق رائحة البكور. ولفحني تيار لذيذ من الهواء البارد.

على طبلية الإفطار الشهي تذكرت أننى سأغادر بعد العصر مباشرة.. وتذكرت خيري. الجيران والأقارب سيأتون يهنئون ثم يسألون.. لا أملك إجابة. ولن أحتمل نظرات الترقب التى تعقب السؤال. تمنيت أن أغادر فورًا. بدأ القلق يلتهمني ببطء.. ماذا أقول؟ وكيف؟

*

فى وسط الدار رأيت أبي جالسًا يُسبح فى خفوت. اقتربت وجلست بجواره.أغمضت عيني حتى يستكمل تسابيحه، واستسلمت لأشعة شمس حانية. شعرت به يتململ. نظرت فإذا هو يجمع السبحة ويضعها فى جيبه. انتظرت أن يبدأ. سألني كأنه يخيرني بين الإجابة أو الامتناع: كيف صنعتم المعجزة؟ قلت فى يقين: كان ظهرُنا للحائط.. والحقُّ معنا. هز رأسه يستحثني على الكلام.. قلت: الحرب شيء بشع.. شفنا أيام سواد لكن ربنا نصرنا. ساد الصمت. كنت أخشى من أسئلة لا أجيب عنها. قال

فى تردد: وإذا سألوك عن أحبابهم؟ سكتُّ لحظة، ثم أتاني الجواب من حيث لا أدري: كلنا أحياء.. ولن يموت منا أحد.

كفر الزيات فى ١٦ أكتوبر ٢٠١٢.

انتبـــــــاه

سمعتُ دقات خطواتي على الأرضية اللامعة فتذكرت وقعها على شاطىء القناة. اقتربت من الباب الزجاجي فانفتح بغير صوت. مرقت فانغلق خلفي بهدوء. مسحت المكان الواسع بناظري. أماكن الجلوس متعددة ومتباعدة.. تقدمت ببطء يليق بزائر. توقفت أمام موظف الاستقبال الذى استقبلني بابتسامة ترحيب ثم دلني على ركن بعينه. غطست فى مقعد ذي مساند. انتبهت إلى مضيفة تقترب بهدوء لتسألني: تشرب إيه يا أفندم؟ طلبت شايا وانتظرت.

المكان يمتلىء بشيوخ يتحدثون بهدوء ويتحركون ببطء ويتساندون فى ود ومرح. سرحت محاولا أن أتخيل الرجل.. كيف

صار؟ ما زالت صورته الطافية على سطح ذاكرتي كما هي.. رأس تنحو إلى الصلع ووجه أحمر ورقبة سمينة على جسد قصير ومتين.

جاءتني المضيفة الحسناء بالشاي. قالت بنبرة جادة: أعرف أنك فى انتظار سيادة اللواء.. سيصل حالا. فعدتُ أمضغ صمتي وأرتب أفكاري.. كيف أقدم نفسي؟ بل كيف أعرفه بعد هذه السنوات التى اقتربت من الأربعين؟ ياااااه عمر ثاني.. وإذا ميزته.. فهل يتذكرني؟ ذكرياتي تنتفض فتخزني بدبابيس الحنين والشوق والزهو. تزاحمت المشاهد فى خاطري.. مازلت أذكر ذلك اليوم من ربيع ثلاثة وسبعين. كنت أقف معه أمام مكتبه. قال كأنه يحدّث شخصا مجهولا: حرب ستة وخمسين قامت وكنت وقتها قائد سرية.. ولمّا أصبحت قائد كتيبة قامت حرب سبعة وستين.. اليوم وأنا قائد لواء ماذا سيحدث؟ انتظرت أن يكمل لكنه غيَّر الموضوع.. فى أواخر سبتمبر استدعانى.. كنا فى أول المساء. أديت التحية فأشار إلى مظروف مغلق وأمرني أن أفتحه. فتحت المظروف فأكمل كلامه: اقرأ وأسمعني. قرأت عدة سطور فتغيَّر صوتي. أشار بيده فتوقفت. قال بهدوء: لعلك فهمت.. هذا الأمر الإنذاري يخصك. شعرت أن الدم يندفع إلى راسي ويشعل الحرارة

فى وجهي. بحثت عن صوتي فلم أجده. فاجأني آمرًا ببرود: اقعد. جلست على طرف المقعد المجاور. واصل حديثه: تصرف حسب الخطة وابدأ العمل فورًا. قمت ألملم افكاري. تجاوزت الخدمة الليلية، ونظرت إلى المظروف الذى تزينه علامة "سرى للغاية".. فأحسست أننى أنوء بحمل ثقيل. نظرت إلى السماء فلمحت هلالا يمضي لحو المغيب.. وتوهج فى راسى خاطر أن الوقت قد حان.. فشعرت ببرد شديد يعصف بي.

فى اليوم التالي أصدر أوامره بإلغاء الطوابير والتجمعات. بعد يومين استدعاني وأمرني دون مقدمات: افطر فورًا وأبلغ تعليماتي لكل الوحدات بالإفطار.. شكّي اصبح يقينًا. لم أناقش. أفطرتُ وأبلغت الأوامر.و.. فيما بعد ضحكت من سذاجتي. فقد أدركت أننى ربما كنت المفطر الوحيد فى الجيش المصري.

فى صباح اليوم الثالث ذهبت إلى مركز قيادة اللواء على حدود الأرض التى حررناها من سيناء. اقتربت فرأيته يحلق ذقنه أمام مرآة بحجم الكف ترتكز على مقدمة الدبابة. هدوء أعصابه منحني طمأنينة غامرة. لحني فناداني بإشارة من يده.. اقتربت فسألني عن أحوال المنطقة الإدارية.. سمع تقريري باهتمام ثم صرفني.

*

انتبهت فإذا الباب الزجاجي يُفتح.. ولمحت بضعة أفراد يعبرون المدخل ببطء. دققت النظر.. ثلاثة رجال يحيطون به يساندونه وهو يمسك بعصا معدنية لامعة ترتكز على الأرض بعدة أرجل. ينقل قدميه ببطء شديد. انحناءته لم تُخفِ ملامحه. إنه هو.. بصلعته التى اكتملت ووجهه الأحمر وعينيه الباسمتين ورأسه المدور. لم يتغير كثيرًا. هممت أن أخطو نحوه لكننى تجمدت بين الإقدام والإحجام. أردتُ أن أقف أمامه "انتباه" مؤديًا التحية العسكرية لعله يتذكرني بعد كل تلك السنين. اقترب من ركنه المفضل فبدا كأنه يتجه نحوي. ظللت واقفًا حتى جلس على مقعده الأثير وتنهد فى ارتياح كأنه أنجز مهمة كبيرة.

اقتربت منه ببطء. انحنيتُ مقتربًا ومددت يدي مصافحًا. همست باسمي وأضفت: اللواء الرابع عشر. رفع وجهه نحوي فى ود واتسعت ابتسامته. قال بلهجة ودود تضج بالفرح: أهلا وسهلا.. تفضل. جلست بجانبه أتأمل ملامحه عن قرب. قلت له: هل تذكرني؟ قال: تذكرتك لأنك نطقت بكلمة السر. قلت: بحثت عنك طويلاً. دلني عليك اللواء توفيق. لمعت عيناه وهو

يؤكد: اللواء توفيق علي منصور. قلت: هو بعينه. قال: إنه دفعتي.. كيف قابلته؟ قلت: فى طنطا.. كان يحاضرنا عن حرب أكتوبر.. طلبت أن يحدثني عن تفاصيل بعض المعارك فأفاض فى الشرح. فى النهاية تشجعت وسألته فدلّني عليك.

الوهن الذى بدا عليه منذ دخوله حتى جلس على مقعده تبدد عندما تحدث.. هو نفس الصوت القوى الحازم الذى كنت أسمعه وهو يلقى بتعليماته اليومية، أو يصدر تكليفاته لقادة الكتائب. عدت إلى أيام التحضير الأخيرة، فرأيته أمام تختة الرمل يشير بعصاه إلى مواقع قواتنا، وردود الفعل المحتملة للعدو.. ثم وهو يصعد إلى دبابة القيادة ويأمر فتتحرك الوحدات. تذكرت المشروع التدريبى الأخير على ترعة الاسماعيلية.. اندهش من طلبى أن يسمح لى بعبور المانع المائى على أول مركبة تعبر.. لكنه وافق بإشارة من يده ضاعفت من حماستى.

أشار فأتت القهوة. أخذ رشفة ثم قال بأسى: صار غدائي هنا يوميًا بعد أن ماتت زوجتي. الألم الذى بدا على وجهه أوجع قلبي. تمتمتُ بكلمات عزاء متفرقة. أخذ يتعزى عن فقد زوجته بالحديث عن أبنائه.. بعد لحظات صفا وجهه.. وزينته ابتسامته الودود.

قلت: معى هدية لسيادتك. نظر لحوي باهتمام. قدمت له اسطوانة كمبيوتر ومقالاً من صفحتين. تطلع لحوي متسائلاً فى صمت. قلت: هذا كنزي الصغير.. الاسطوانة مسجل عليها أحاديثك وتعليماتك لضباط وجنود اللواء قبيل الحرب.. أما المقال فهو عنك.. ضمن سلسلة مقالات كتبتها تحت عنوان "قادة عرفتهم". أمسك المقال وأخذ يقرأ بتمعن. لاحظت لمعة تومض فى عينه وهو ينتقل بين السطور. انتهى من القراءة فلم يقل شيئًا. نظر إلى بعيد وخرجت من بين شفتيه: هييييييه .. ولم يزد.

سألني برقة: حدثني.. ماذا فعلت فى حياتك. انفتح صنبور الذكريات.. وتدفقت منه حكايات. أصغى بانتباه ثم قال: وماذا تفعل الآن. قلت: أقرأ وأكتب وأغشى المنتديات الثقافية وأنشر كلما تيسر ذلك. أشار لأقترب منه قائلا: تعال لأريك ما أفعل هذه الأيام. فتح حقيبته وأخرج كومًا من الأوراق.. انتقى بعضها وبسطها على الطاولة فأدهشتني الرسوم. قال: أقضى وقتي فى ممارسة هوايتي. أراني زهورًا مرسومة بألوان مبهجة.. وبورتريهات لوجوه متعددة قلت: الله الله. نظر لحوي بريبة فقلت: لم أجاملك يا سيادة اللواء. فاجأني بأن نظر فى وجهى متأملا ثم قال: لم تتغير

كثيرا.. ما رأيك.. سأرسم لك بورتريها. أمسك بقلم الفحم وبسط لوح الورق. قبل أن يبدأ سمع صوتا قريبا يناديه.. فرفع رأسه وصاح فرحًا: أهلا.. جئت فى وقتك يا سيادة العميد. أشار لحوي وواصل الحديث: هذا رجل حارب معي.. جاء ليراني بعد سبعة وثلاثين عامًا. اقترب الرجل فانتفضت متمتمًا بكلمات ترحيب وتقدير. نظر لحوي بعمق ثم صاح فى غير تصديق: حرب إيه.. أنت عيِّل. ضحكت فى خجل بينما علت قهقهاته. كان يجرر ساقًا صناعية ويعتمد على عصا معدنية لامعة. أسرع أحد الجنود لمساعدته فى الجلوس. قال له فى امتنان: شكرًا يا ابني. نظر لحوى سيادة اللواء وقال وهو يشير إلى العميد: هذا هو صاحب النصر الحقيقى. التفت العميد لحوي وحدثني: تعرف أن سيادة اللواء يحمل نجمة الشرف.. لكني أحمل ثلاث نجوم.. ساق مبتورة وذراع عاجزة وعين واحدة اكتفت بما رأته قبل الحرب. أطلق ضحكة واقترب من سيادة اللواء وأخذا يتحدثان.. كأنهما يكملان حديثا لم ينقطع بينهما.

انشغل الرجلان فى الحديث. راقبتهما وهما يتكلمان بود.. فانطلق خيالي.. مغادرًا المضيفات الحسناوات، والأبواب الزجاجية

الآليـة، والحـوائط الرخاميـة، وأوانـى المائـدة اللامعـة، والمناضـد الفاخرة، والأرضيات الملونة الناعمة.. لأرى القناة.. الحلـم الـذى تحقـق.. وتوغلنـا نحـو الشـرق فـى الصـحراء الواسـعة.. وغبـار المركبـات والـدبابات.. وأصـوات الانفجـارات.. وغـارات الطائرات.. وصيحات الاستغاثة.. والأجساد المشطورة.. والجراح النازفة.. والضحكات الممزوجة بدموع الخوف والأمل. وعـدتُ.. على عيني ستارة من دموع.. وفى حلقي بقايا من رمالٍ ناعمة.

دار المدرعات بالقاهرة فى ٦ يونيو ٢٠١٠.

رِفقَــــــة

فى صالة السفر بالمطار أتممتُ إجراءات الوزن وختم الجـواز.. ومضيت إلى الكافيتيريا لتناول القهوة. أخذت أول رشفة ففاجأتني عاصفة باسيلي رزق الله. رأيته أمامي فـاردًا ذراعيـه. أخـذني فـى حضنه وواصـل عبـارات الترحيـب فـانهمرت أمطـار الـذكريات ورياحها....

*

طلعت إلى سطح البيت فرأيت رِفقة ابنة عمـي رزق الله تطعـم الأفراخ فى العشة الصغيرة. حملت ربطة حطـب ونزلـت إلى أمـي لتشعل الفرن.. ثم عدت مسرعًا لأتحدث مع رفقة. لاأعرف مـاذا أصــابني فرجوتهـا ألا تسـرع بـالنزول. ثـم جلسـنا علـى القـش.

اندهشتُ عندما أمسكت بيدها ورفعتها إلى فمي لأقبلها. كنت كمن تلبسني شخص آخر. اتسعت عيناها ثم انتفضت وعلى وجهها علامات ذعر وشحوب وبقايا ابتسامة ملكت قلبي. عدتُ إلى أمي فسألتني وهى تتمعن فى وجهي: مالك فيه إيه؟ فتظاهرت بالبلاهة ولم أرد. صوبت نحوي نظرة ثاقبة فضحتني وصاحت بحسم: اتكلم يا واد. ألقيت بنظري إلى الأرض وركبني الخرس. ربتت كتفي وهي تهمس فى حنان: تكلم يا حسين. قلت ونظري مازال فى الأرض: كنت أتكلم مع رفقة. ضمت أصابعها ووضعتها على فمها كأنها تكتم صيحة تكاد تفلت منها. قالت بصوت لائم خفيض: أصول الجيرة إنك تعاكس بنت عمك رزق الله يا حسين؟ أكملت وكأنها تحدث نفسها: هى كأختك.. وتفكيرك فيها يحطنا فى مشاكل.. اعقل يا نور عيني.. اوعدني تراعي الجيرة. انتهت من كلامها فاختفيت من أمامها متمنيا أن تنشق الأرض لتخفيني تحتها.

ظللت مرعوبا لعدة أيام.. خفت أن تشكوني رفقة لأخيها باسيلي.. الطويل العريض الذى يكبرني بعدة أعوام. لو علم لفتت عظامي. لم أستطع احتمال رعبي فلجأت إلى صديقي ولیم.

أخذت ألف وأدور ولم أجرؤ على فتح الموضوع. انتابه الملل من ترددي فصاح بي وهو يهم بالانصراف: جرى إيه يا حسين.. تكلم. أمسكت ذراعه فى ضراعة وحكيت له الحكاية والعرق يغمرني.. عدا أنى قبلت يدها. وصفني بالخوّاف ورأى أنه لم يحدث ما يستوجب كل هذا الرعب. هدأتُ قليلاً ثم حمدت الله أن الأمر مرَّ بسلام. وظللت أتحاشى لقاء باسيلي حتى التحق بالكلية الحربية بعد شهور.

تجنبت أن أطلع إلى سطح البيت حتى لا أراها. حاولت أن انسى مشهد ارتباكها وذعرها.. لكنى لم أستطع نسيان شحوبها وابتسامتها الملائكية الساحرة. لم تعد أمى ترسلني بأطباق الكحك ووعاء اللبن الحليب وشالية اللبن الرايب إلى بيت عمي رزق الله كما كانت تفعل من قبل. لكني كنت أترقب أن تأتي رفقة لتطلب من أمى غربال أو تعطيها برطمان عسل لحل أول قطفة. أراها فأتسمر فى مكانى لااستطيع أن ارمش حتى لاتفوتني لمحة منها. لم أشعر مرة أنها غضبت مني.. بل كانت تحاول أن تبقى فى مجال نظري مدة أطول. لم أقترب منها أو اتحدث معها بكلمة واحدة لأن وعدي لأمي كان سكينا حادا يقف بينى وبينها.

مرض عمى رزق الله فطلبت أمى أن أزوره، الجيران لبعضها، والنبى وصّى على سابع جار يا حسين. خبطت الباب المفتوح دائما وتنحنحت كما يفعل الرجال. استقبلتني زوجة عمي رزق الله وأفسحت لي الطريق عندما سألتها عنه. دنوت منه، ودعوت له بالشفاء، ثم جلست على مقعد قريبا من السرير. بعد لحظة هلت رفقة وهى تحمل صينية عليها كوب من عصير الليمون. قالت: تفضل. بحثت عن صوتي فلم أجده. لكني تمتمت بكلمة شكر متآكلة.. ولم أستطع أن أرفع وجهي نحوها.. بعد لحظات غادرت المكان والعرق يغمرني.

انتقلنا إلى بيتنا الجديد.. لكنى لم أستطع نسيان رفقة وبيتنا القديم.. لم أتصور أن تعيش فيه أسرة أخرى.. وأن يصعد ولد آخر ليرى رفقة تطعم الأفراخ ويتأمل جمالها ويحادثها.. الدم كان يصعد إلى رأسي عندما أفكر فى ذلك.. وأشعر ببوادر إغماء. اعتدتُ السير فى شارعنا القديم.. علىَ أمل أن أحظى بنظرة تُهدّيء شوقي. فإذا كنت بصحبة أصدقاء تشجعت وألقيت ببصري نحو مدخل بيتها. وإذا كنت وحيدا فلا أرفع عيني من الأرض.. ثم ألوم نفسي على إضاعة الفرصة.

بعد شهور من تجنيدي.، نُقلتُ إلى الجبهة قريبا من قناة السويس. وصلت إلى وحدتي فى سرابيوم منهكا من السفر الطويل. استقبلني الزملاء وأفردوا لي مكانا فى إحدى الخيام فنمت بعمق. فى طابور الصباح اصطفت السرية للتمام. حضر قائد السرية الذى ألقى بتعليماته، ثم أمر المساعد ليصرف الطابور.. عدا الجنود الجدد. اقترب قائد السرية متأملا وجوهنا. أمرنا أن ننطق ببطاقة التعريف ففعلنا. استفسر عن المحافظات التى أتينا منها. سألني إن كنت أعرف الملازم أول باسيلي رزق الله. فقلت إنه بلدياتى وجارنا. رد قائلا: يا بخت من كان النقيب خاله. إنه فى قيادة الكتيبة. يمكن أن تقابله اليوم.

أديت التحية لباسيلي الذى رحب بي وأخذني إلى مكتبه.. رأيته أطول كثيرا وأنحف. لعل الحياة العسكرية هى السبب..لاحظ باسيلي أني أكلمه بطريقة رسمية. فأشار محذرا وهو يقول: أنا الملازم أول باسيلي..لكني فى هذا المكتب وفى الملجأ الذى أنام فيه.. أنا باسيلي بن عمك رزق الله..حمدا لله على سلامتك يا حسين.. لا تحمل هما. تملكتني الفرحة..وخفق قلبى عندما تذكرت

رفقة والقبلة الحانية. انتبهت على صوته يأمرنى بود: انصـراف يـا جندي. فانصرفت وقد تبددت الغربة التى كانت تغشى بصري.

ذات مساء استدعاني باسـيلي إلى مكتبـه. سـألني عـن موعـد إجازتي فقلت: بعد عشرين يوما. قال: خسـارة.. كنـت أرجـو أن تحضر الفرح معي. سألته وأنا خالي الذهن: فرح من؟ قـال: فـرح أختي رفقة. انتفض جسدي لكني تمالكت.. تمتمت بكلمـات تهنئـة غير مترابطة وأنا أكاد لا أرى شيئا. غادرته وأنا أشعر أن الخبر نزل كالسيل على رأسي فبللني وأرعشني وكشف ما كنت حريصا على إخفائه فى قاع ذاكرتي.

قبل الحرب بعدة شهور ترقى باسيلي إلى رتبة النقيب، ونقل إلى قيادة الفرقة فى معسكر عزالدين. دعاني الزملاء لحضور الاحتفال بترقية بلدياتي. كان الحفل لطيفا رغم إمكانياته الهزيلـة.فى النهايـة غنينا جميعا.. متخذين الملاعق والأروانات والخوذ وأعمدة الخيمـة كآلات موسيقية. فى الصباح أسرعت إلى باسيلي لأصـافحه قبـل أن يغادر. أجلسني فى مكتبه، وأعلمني كيف أتصل به إن احتجـت لأى شيء..وحاول أن يضع نقودًا فى جيبي، لكني قلـت وأنـا أرد يده شاكرًا: مستورة والحمد لله.

بعد انتهاء الحرب.. وفى أول إجازة طويلة تذكرت باسيلي. لكنى لم أجرؤ على الذهاب إلى شارعنا القديم لأسأل عمي رزق الله عنه. احتلت حتى قابلت وليم الذى أخذني فى حضنه وتهدج صوته من الفرح. سألته عن باسيلي فقال إن عمر الشقي بقي. ألححت عليه فأخبرني أنه مصاب بشظية فى ساقه، ويخضع للعلاج فى مستشفى كوبري القبة، ويحاولون أن يتجنبوا بتر ساقه. قررت أن أزوره قبل رجوعي للوحدة. هالني بلونه المخطوف ونحافته الشديدة. رآني فامتلأت عيناه بالدموع وهو يعض شفتيه. بعد أن هدأ قال لى إنه مصاب بأكثر من شظية فى ساقيه بعد انفجار لغم أمام حصن للعدو في عمق سيناء. رآني عمي رزق الله فرحب بي وحدثنى عن أيام الجيرة الحلوة، لكنى لاحظت أن القلق يأكله. انتظرت حتى غادر المستشفى لكي أتحدث مع باسيلي دون حرج.

*

صفت السماء بعد أفرغت الغيامة مطر الذكريات. ابتعدت قليلاً عن باسيلي ونظرت إلى ساقيه فى دهشة. قال وابتسامة واسعة تسبح فى وجهه: الحمد لله.. الدولة قامت بالواجب

وزيادة.. عالجتني فى السويد لمدة عامين كاملين. قلت: ألف مبروك. ماذا تفعل هنا؟ تحولت ابتسامته الواسعة إلى قناع من حزن ولم يرد. هززت رأسي متسائلا بغير صوت. قال: أسافر إلى رفقة. ظل السؤال معلقًا على شفتى. فتمتم بارتباك: رفقة مريضة، وتعالج فى فرنسا من المرض اللعين. غمرني ارتباك مؤلم. احسست أن صدري يضيق.. ولم أجد كلاما أقوله. داهم خيالي المشهد القديم: قبلتي على أصابعها، وذعرها وابتسامتها الآسرة، ونظرة أمي الصاعقة وتأنيبها، وخوفي من باسيلى. هاجمتني صورة لوجه رفقة وقد هدّه المرض. لم أتخيل أن أرى وجهها الصبوح الناعم وقد أصبح شائها.. مثلما لم أتخيل أن يسير باسيلي على قدميه ثانية. النداء على رحلتي أنقذني. نظرت معتذرًا إلى باسيلي الذى همس وهو يهز رأسه فى حزن: مع السلامة.لم تطاوعني قدماي، فأمسكني من ذراعي ودفعني برقة نحو البوابة. ترددتُ قليلاً. ثم أسرعتُ نحو الطائرة وقد اشتعل قلبي بالوجع.

٣سبتمبر ٢٠١٠.

شهيد وحفيد

كدتُ أتجاوزها. رأيتها تحرك يديها كمن تنبهني إلى شيء، ولمحت على وجهها علامات خوف وحيرة. تجلس على الرصيف العريض مستندة بظهرها إلى السور المعدني المواجه للأوبرا. نظرت إليها من فوق كتفي. أمامها كتب قديمة وبعض أكياس متربة. توقفت ثم عدت إليها. مِلتُ أتأمل بضاعتها. كتب قديمة بأغلفة ملونة باهتة، وكيس به بكرات خيط، وكيس آخر به دبابيس مشبك. تعجبتُ.. ماذا تفعل فى هذا البرد ولمن تبيع؟! فكرت أن أناوشها. اخترتُ بكرة خيط أسود بها بعض الإبر. وطلبت أن تعد لى ثمانية دبابيس. انهمكت فى تسليك الدبابيس الموصولة ببعضها. لو تركتها تكمل لاحتاجت ساعتين. أخذت منها الدبابيس برقة وأخذت أخلصها حتى خلصت. سألتها: كم تريدين يا أمى؟ قالت: خمسة وسبعين قرشا. نظرت إلى وجهها فتعجبت من الجدية

التى تتحدث بها كأنها تبرم صفقة بآلاف الجنيهات. غالطتها ووضعت فى حجرها جنيهين، فسألتني عن الباقي فقلت لها: لاشيء. فأشارت لحو الميدان إشارات متتابعة، وقالت بصوت منخفض ومحذّر: حافظ على روحك.. هناك ضرب جامد.. ابن بنتي كان هنا.. تركني وحدي وراح.

خطر ببالي أن أشتري كل ما معها فسألتها: بكم تبيعي البضاعة كلها؟ فخبطت صدرها وقالت فى انزعاج: أنا دخت فى لم البضاعة.. كيف أبيعها مرة واحدة؟ سألتها: أين حفيدك؟ أشارت لحو الميدان فى زهو، ثم تلون وجهها بالحيرة وهى تقول: قلت له اقعد جنبي فجرى كالجحش الحرون. لزمتُ الصمت فأكملَت: ربنا يحميهم. أخذت تراقب أفواج القادمين لحو الميدان، وتشير لهم كجندي مرور يحث السيارات لتخلي الطريق. قالت فجأة: أنا مرعوبة على الولد.. قلت لها: الميدان امتلأ بالناس.. يحتمون فى بعض. زاد تدفق القادمين، فنظرت لي كأنها أعادت النظر فى العرض وهمست: بكم تشيل البضاعة؟ قلت دون تفكير: بعشرة جنيه. أخذت النقود وهمت بالذهاب. نظرتُ إلى البضاعة وكأني تورطت. لاحظت التردد على وجهي فأمسكت بيدي ووضعت

فيها الورقة النقدية وهى تقول: ولا يهمك.. أشيلها أنا. لم تترك لي فرصة للتفكير. انحنت ولملمت البضاعة فى خرقة كبيرة وربطتها ووضعتها تحت إبطها وأسرعت. لحقت بها وأنا أناديها: انتظري يا عمة. أبطأت خطوها فمددت يدى بالنقود. أشارت فى وجهي وهى تقول فى حزم: آخذها وأنت تشيل البضاعة. وافقت. أسرعَتْ فرجوتُها: نمشي مع بعض. أبطأت خطوها فسألتها عن حفيدها. قالت: مسكين.. يتيم الأم والأب.. أجري عليه.. وأخاف أن أموت وهو صغير.. أبوه كان عسكري فى الأمن المركزي.. مات من ضربة شمس.. وأمه ماتت فى ولادتها الثانية.

اقتربنا فتأكدت أنني سأفقدها فى الزحام. طلبت منها أن تحمل الشيلة لكى أعدل ملابسى. أخذت الشيلة فدفعتنا موجة جديدة من البشر وارتفعت الهتافات. أحسست بيد تقبض على ذراعي. نظرت فإذا هى تنظر نحوي مستنجدة. خفت أن تقع تحت الأقدام فأدنيتها مني وأحطتها بذراعي. أخذت بيدها لنجلس على حافة محطة المترو. تملصت وهى مصممة على الاندفاع للأمام. حاولت إقناعها فقلت لها: اقعدي جنبي هنا. جلست وهى مشغولة بالشيلة. قلت لها: هاتيها. هدأت بعد أن أخذتها ووضعتها بجواري على

الحافة الرخامية. قلتُ لها: المشي سيتعبك.. اقعدي واهتفي مع الناس. سألتني: لا أسمع الهتاف.. يقولوا إيه؟ قلت لها: إيه طلبك؟ قالت: يزيدوا المعاش.

سمعنا صوت طلقات فجفلتْ، ثم غطتنا سحابة دخان فسعلنا. رأيت دموعها تغطي وجهها وهى تعطس بشدة. لم أعرف ماذا أعمل. أنقذنى شاب قريب. قذف بزجاجة صغيرة نحوي. تلقفتها وفتحتها. نظرت إلى الشاب الذى أشار بإصبعه نحو عينيه بطريقة موحية. غسلت للعمة وجهها وهى تقاوم. أفاقت فقالت بامتنان: تُشكر يا ابني. تلفتت حولها ثم قالت بفزع: أنا خائفة على الولد. قلت لها: ربنا يحميه. قالت وهى تكاد تبكي: وحيدي.. ما لي غيره. انهمرت علينا قطع الحجارة. أصابت إحداها الشاب الذى أعطانا الزجاجة. أسرعتُ إليه بينما صرخت العمة: يا هوي. لحقت بي وهى تتمتم بشتائم متآكلة لمجهولين. وجدنا الدماء تنزف من رأسه وهو يتداعى على الأرض بينما يواصل الهتاف. حاولت كتم الجرح فلم أستطع. أسرع بعض الشباب بحمله إلى خيمة قريبة من مبنى المجمع.

خفت على العمة فحاولت الخروج بها من الزحـام، فتملصَتْ مصممةً أن تبقى. قالت: الحكومة لا تضرب أولادهـا.. منها لله. قلت لها: تعالي نخرج من هنا.. المكان خطر. قالـت فـى تصـميم: الخطر علينا كلنا. امتلكها الحماس فهتفـت: المعـاش. تابعـت بعـد لحظة صمت: العيش الحرية. ارتفع نـداء: لا إلـه إلا الله. الشـهيد حبيب الله. رأيت كتلة بشـرية قادمـة تـرج الأرض بهتافهـا. كـان الشباب يحملون فوق رؤوسهم شابًا تغطى صدره بقعة كبيرة مـن الدم. أمسكت العمة من ذراعها التى كانـت تـرتعش وهـي ترفـع إصبعها مرددة الشهادتين. أخـذتها فـى حضـني ولم أسمـح لهـا أن تنجذب نحوهم. انخرطَتْ فى بكاء شديد وهى تردد: يـا حبـيبي يـا ابني. ربتُّ كتفيها مواسيا.. لكنها انتفضـت لتتـابع جنـازة الشـهيد وهى تولول. رأيت فى وجهها علامات ذعر وتصـميم. فكـرت.. هل استطاعت أن تميز وجه الشهيد؟ هل يمكن أن يكون حفيـدها. تذكرت أولاد العائلة وشباب الحي الذين رابطوا فـى الميـدان منـذ اليوم الأول وتساءلت.. هل يمكن أن يكون الشهيد واحدا مـنهم؟ شعرت بدوخة خفيفة.. قلت فى نفسي: الشهيد واحدٌ منا. اقتربت مظاهرة أخرى صغيرة لم أميز هتافها. وجدت العمة تطرطق أذنيها،

ثم فوجئت بها تهتف مع الهاتفين. لاأعرف من أيـن واتتهـا القـوة التى جعلتها تنفلت من بين يدي وتمضـي مـع الغاضـبين.. رأيتهـا كابنة عشرين سنة.. وبدت كأنها نسيت حفيدها ونسيتني ولم تلتفت للشيلة التى وضعناها على الحافة الرخامية لمحطة المترو.

كفر الزيات فى ٣ يوليو ٢٠١١.

الفلـــوس

رجعت من المدرسة باكيًا. كانت أمي تخبز. سألتني وهى تلقى بخرباش قش فى شاروقة الفرن: مالك؟ سُقْتُ فى العياط. صرخت مهددة: انطق يا ولد؟ قلت لها من بين دموعي: عاوز فلوس. لوَت فمها وقالت كأنها تسبني: تعمل بها إيه؟ احترت قليلاً ثم قلت: أشتري حاجة حلوة. مدت حديدة الفرن بخرقة المصلحة ونظفت العرصة. أعادت المصلحة. وسحبت رغيفًا منتفخًا بسن الحديدة الملتوي. أشرق وجهها بابتسامة كبيرة وهي تقول: أعمل لك حاجة حلوة. أمرت أختي أن تأتي لها بجفان سكر وملعقة سمنٍ. فتحت الرغيف ووضعت السمن والسكر ففاحت رائحة العيش والخبيز. مدت يدها قائلة: خد يا ضنايا.. مطرح ما يسري يمري. هدأت قليلاً وأخذت قطمة من الرغيف. نظرت إلى وجه أمي فرأيت خدها أحمر. شعرت أني أحبها أكثر وهممت أن

ألقي بنفسي في حضنها، لكني فضلت الانتهاء من الرغيف. شبعت فألقيت برأسي على كوم القش بجوارها وتهت في النوم.

زغدتني أختي بعد انتهاء الخبيز لأقوم وأغير لبس المدرسة. فتحت عيني فتذكرت الولد الذي غاظني في الفسحة. أخرج من جيبه مليمًا أحمر مشرشر ولوّح به في وجهي. أهملته لكنه أخرج لسانه لي ودخل الدكان المجاور للمدرسة. غاب دقيقة ثم خرج وفي يده كوم من الكراملّة. مددت له يدي متوسلا: هات واحدة. فهز رأسه وأخرج لسانه وتركني وجرى في خطوات متعرجة وهو يقلد صوت سيارة. حدفته بالطوب لكنه ابتعد، فجلست على المصطبة المجاورة للمدرسة مقهورًا. ثم صممت أن أطلب من أمي فلوسًا. تذكرت البكاء فانتحبت. ضربتني أختي فصرخت. بحثت عن أمي حتى وجدتها تجمع الفراخ في العشة وتقفل عليهم. مدت أمي يدها قائلة: ساعدني في تبييت الفراخ. ساعدتها وأنا أعاود البكاء: أختي ضربتني. فنادت أختي: لا تضربي الرجل يا مزغودة. أسعدني وصفها لي بالرجل وكلمة مزغودة فهدأت.

بعد لحظة تذكرت المليم الأحمر المشرشر فوضعت يدي على عيني وأنا أنهنه. أمي قالت: تاني.. اهمد يا ولد. خبطت رجلي فى الأرض وقلت: أنا عاوز فلوس. ردت غاضبة: عليك عفريت اسمه فلوس.. ناقصك إيه؟ لم أرد وواصلت البكاء. أخذتني من وسط الدار وأجلستني أمامها فى حجرتنا. قالت: أنا قَرَّصْت فلوس وتركتها تنشف على السطح. لمَّا تنشف خذ منها واشتري اللى قلبك يحبه. فرحت وصبرت وأخذت أُسَمِّع النشيد الواجب علينا. جاء الليل فنمت.

فى الصباح سألت أمي عن الفلوس الطرية، فقالت: باقى يومين. فكرت أن أطلع للسطح لأراقب الفلوس الطرية وأستمتع بمنظرها. حزنت لأنى لا أقدر على طلوع السلم النقالي. كما تذكرت ابن الجيران الذى حاول الطلوع فانكسرت رجله.

أصبحت شغلتي كل يوم الاطمئنان على الفلوس المنشورة فى الشمس. أعود من المدرسة فأسأل أمي ويكون ردها مثل كل يوم: لمَّا تنشف. حاولت مع أختي فقالت إنها لا تستطيع طلوع السلم

دون إذن أمي. بعدت عن الولد صاحب الملاليم الحمراء. انتظرت أن أفاجئه بالفلوس التى تصنعها أمي.

زهقت من انتظار الفلوس، ففكرت أن أعملها بيدي وأضعها فى الشمس. احترت.. هل أعملها من الطين أو العجين أو فروع الشجر. بعد أيام نسيت الفلوس، لأن الناظر صمم أن يمتحننا بنفسه. قلت لأمي فقالت: ذاكر يا حبيبي.. ربنا ينجحك انت واللى زيك. انهمكت فى حفظ الآيات والأناشيد وحل مسائل الحساب وجربت زرع الفول والحلبة فى صحن صاج غويط.

يوم الامتحان خرج المدرس من الفصل وجاء الناظر مكانه، وكتب على السبورة الأسئلة وطلب أن نكتب الحل بالقلم الرصاص فى ورقة. وأكد على كل واحد أن يكتب اسمه على الورقة. رجعت إلى أمي جريًا وارتميت فى حضنها خوفًا من السقوط فى الامتحان. طمأنتني قائلة: أنت شاطر يا حبيبي.. ناجح بإذن الله.

فى اليوم الثانى ظهرت النتيجة. وصرفنا الناظر بعد الفسحة. فجرينا إلى بيوتنا نبرطع فرحًا بالإجازة الكبيرة. دخلت إلى البيت

أتصايح وأنا أحس أنى أطول وأكبر. رأيت أمي جالسة على الكنبة التى تنام عليها. كانت تتحدث مع أختي. سمعت كلمة "نص جنيه" تتردد بينهما. عندما رأتني خفضت صوتها، لكنى لمحت فى وجهها بقايا دموع. كانت الكلمات تخرج من فمي غصب عني: أنا نجحت. قلبي رقص من الفرحة التى ملأت وجهها الجميل. لكنى تعجبت من الدموع التى سالت من عينها.التفتُ إلى أختي فأخذتني فى حضنها وهى تقول لى: مبروك. لكنى لاحظت فى عينها حزنًا جعلني أتذكر الفلوس. خمنت أن الفلوس التى كانت تنشف حرقتها الشمس، وأن أمي ستعمل غيرها.

كفر الزيات فى ٢٩ يناير ٢٠١٢.

الخســوف

أنظر من الشرفة. النهار يعطيني ظهره ويمضي. أعمدة الإنارة تصحو. والمصابيح تضيء فتلقي على جدران المنازل ظلالا مراوغة. النوافذ المغلقة تخفي حكايات. أنتظر أن تصحو أمى من النوم لأحكي لها.

كيف أبدأ؟ هل أحدثها عن حسين المُحمّدي.. زميلي الذى يكبرني بعشر سنين.. ستسمعني بهدوء.. ثم تتسع عيناها دهشة من عصف المفاجأة.. يلسعني صوتها وهو ينتقل من حال الغضب إلى مقام الدهشة.. فتسألني عن الذى مازلتُ زوجةً له. يتلبسني الغيظ فأكرر ما قلته.. هو طبيب شهير.. على عيني وعلى رأسي.. لكننا مختلفان.. هو لا يريدني.. وأنا لا أحتمله. تهمس فى تسليم: نصيب ومكتوب. فيملؤني الحزن وأتذكر صفوت.. أخي التوأم

الذى أحفظه فى قلبى وأستحضر صورته كلما اشتقت إليه أو ساءني موقف.. فأصنع بدموعي عجينة حزن.. أمضغها.. فتنشب فى رأسي مجادلات لا نهاية لها.. تضعني على حافة الجنون.

أحلم بصفوت كثيرًا.. يطالعني بوجهه الحزين ونظرته اللائمة.. لا ينطق بكلمة.، ولا ينتظر حتى أعتذر له.. يختفي كأنه يتولّى عني فأصحو باكية. لا أحكي لأمي.. أحافظ على قمقمه مغلقًا.. حتى لا تنطلق سحابة سيرته بصخب رعد هادر والتماعات برق فى سماء مظلمة.. لا تلبث حتى تسّاقط دموعًا حارة. أفتقده منذ رحل.. أستعيد اللحظة كأنها حدثت بالأمس... فى مساء شتوي بحثت عنه فلم أجده فى حجرته ولا بجوار أمه.. وجدته جالسًا فى هذه الشرفة يغطي وجهه بيديه وجسده يهتز. شعر بي فحاول أن يتمالك نفسه، لكنه انفجر باكيًا. اقتربت منه مبهوتة.. وضعت يدي على كتفه وسألته:

- مالك يا نور عيني؟

بعد لحظة صمت ثقيلة قال دون أن يرفع وجهه:

-انت أقرب الناس لي.. أختي وتوأمي وصديقتي.. لن أتزوج إلا ممن أحبها.

قلت له وأنا أحيطه بذراعي في حنو:

- خلاص يا نور عيني.. نخطبها لك.

أخيرًا رفع وجهه، ونظر لى بعينين خجليين مبللتين بالدموع، وقال بعد تردد:

- لن توافقي عليها.

قلت بسرعة:

- ولِمَ يا حبيبي.. ما المانع؟

مسح عينه بطرف سبابته فلمحت فى وجهه حيرة وعدم تصديق. هززت رأسى لأستحثه على الكلام. بعد لحظة صمت تحدث.. فى البداية لم أستوعب ما قاله.. صرخت فيه:

- ماذا تقول يا صفوت؟

أعاد ما قاله ببطء فبدأت أفهم. سقطت الكلمات على رأسي كمطرقة حديدية ساخنة. أدركتُ المصيبة التى يسوقنا إليها والفضيحة التى ستلحق بنا.. فانتفضت صارخة فى ذهول:

- فاطمة! لاآآآآاه.. مستحيل.

حاولت السيطرة على غضبي فلم أقدر. جذبته من يده وأخذته إلى غرفته حتى لا تنتبه أمي.. واصلت تأنيبه:

- لن أسمح لك يا صفوت.. سأحارب هذا الزواج حتى الموت.

لم أهتم بشحوب وجهه ولمعة الدموع فى عينيه الضارعتين. جلس على طرف سريره يسمعني فى امتثال وذهول. تركته وجسدي ينتفض.. كأن الدم فى عروقى يسري فى اتجاهات متعاكسة. لم أستطع أن أجهز له طعام العشاء. قضيت معظم الليل أتقلب على مسامير الخوف والغيظ. وتركت دموعي تسيل علها تزيل الغضب الفائر فى صدري. تجنبت الحديث مع أمي حتى لاتقرأ فى وجهي ما حدث. أدرت المشكلة على كل وجه فلم أجد لها حلا. لكن صفوت حلها بعد أيام عندما تأخر فى نومه. حاولتُ إيقاظه فلم يستجب. جارتنا أسرعت على صراخي. وقع

بصرها عليه فصرخَت فى يقين. لم أُصدِّق إلا عندما قال الطبيب: ارسلوا أحدًا لاستلام التصريح.

رأيت أمى تذوي ودموعها تسيل. أخذ صفوت معه المشاعر الحلوة ومضى، فاستوطن الألم بيتنا وصار كل شئ بعده بلا طعم.

زواجي تم بسرعة وبغير تدبر. لم تدم حياتي معه سوى شهور قليلة تكشفت فيها سوءاته الخافية. عانيت من بخله وفظاظته. أشكر الرب اننى لم أنجب من رجل يأباه جسدي. بعد عامين أعادني فى صمت. فوجئت أمي فشهقت فى حزن. واجهتُ نظرتها اللائمة بنَظرة تحدٍ. بكت وهى تحدث نفسها: تصورت شكاياتك منه دلع بنات. .

فى عامَي الندامة لم ينطق بكلمة واحدة تشى بالمحبة أو الشوق واللهفة. فى ساعات الحب كان يلاطفني بشتائم بذيئة تقصيني خارج اللحظة لأصبح لوحا من خشب.. فلا يتوقف ولايهتم. يعاملنى ككلبة عليها تنفيذ تعليمات صاحبها بدون مناقشة، وانتظار ما يجود به من فتات الطعام، والابتهاج بما ينتقيه من شتائم الملاطفة، والامتنان لضرباته التى يختلط فيها جد العقاب المؤلم

بهذر الاستخفاف. لم أشعر فى اقترابه مني ببحّة الرغبة فى صوتي، ودبيب الأنوثة فى صدري، والرعشة فى ظهري، وخدر الاستسلام يسري فى أردافي. فى البداية كان الخوف يكبلني، وفى النهاية كاد التقزز أن يقتلني. كنت أتسمع أحاديث صديقاتى عن لحظات الحب مبدية عدم الاهتمام. يهززن رؤوسهن ويقلن: دعوها فهى بنت مؤدبة.. يهملنني.. ويهمسن بتفاصيل مذهلة لم تخطر على بالي.: ولا أدري عنها شيئًا.

آه يا توأمي البعيد.. لم أقص على أحد ما أقوله لك الآن.. ستظن أمي أنى جننت. هل أنا مجنونة لأنى أحب؟ شيء ما كان يتسلل إلى روحي ببطء وإصرار. الكلمات القليلة التى تبادلناها امتدت بيننا كرباط حريري متين. نظراته المرتبكة الحنون أصابتني بدوار لذيذ لايمكن وصفه. أحسستُ كأن مسارات الدم فى شراييني انضبطت، وروحي تنسرب من قمقم خانق إلى فضاء بلا حدود. بدأت أنتبه إلى تحولات جسدي كأن خراط البنات يزورني لأول مرة. عرفت أخيرًا البلل الذى يصيب الأنثى فيدفعها إلى الذوب والبوح والمنح. لن أخجل منك يا نور عيني وأنت على هذا البعد. سأعترفُ لك كما اعترفتَ لى.. لكني أرجوك أن تكون

كريمًا معي.. لاتعاملني بالغلظة التى عاملتُك بها.. ولا تقل مثلما قلتُ لك. أنت الآن تحلّقُ طليقًا فوق هامات الكون. أوقن أنك تدرك.. بينما لا نستطيع فك رموز شفرتك.. اسمعني يا صفوت وائتني بالبشارة.

لا أعرف كيف كانت البداية. شيء ما جذبني إليه فى قسوة. التقت نظراتنا فسرت الصاعقة فى بدني. غاب عني فأظلمت الدنيا. قالوا إنه مريض فهربت الدماء من جسدي. بعد تعافيه أتى تحيطه هالة من ضياء فأحسست بقلبي يزقزق فى صدري وجسدي يتوتر. رأيت سحابات متداخلة تعبر سماء وجهه الحزين.. احترتُ فى تفسيرها. عندما تيقنتُ سرى الخدر فى جسدي، واستسلمت لطوفان الدموع العذبة وعذاب الانتظار ومتعة ترقب الحصول.

أعرف أنه لن يكون من نصيبي. أشفق عليه من الحيرة التى أقرؤها فى بحيرة عينيه. تمتد بيننا شلالات بالغة الارتفاع سحيقة الغور. أمي تراني ساهمةً أذوي فتنصحني أن أواظب على قُدّاس الأحد. هل أحلها كما فعلتَ أنت؟ تمنعني إرادتي ويحبسني إيماني، وقطرات من أمل أبلل بها ريقي عندما أراه.

فى ليلة عيد القيامة حلمت بكما معًا. رأيت أنى أسير معه فى بحيرة من ضوء وأيدينا متشابكة. كنتَ تنتظرنا فاتحًا ذراعيك مرحبًا وعلى وجهك ابتسامة حانية وحزينة.. تبتعد كلما أسرعنا نحوك. صحوتُ أعاني من صداع شديد. تذكرت أنني لن أذهب إلى العمل. كرهت العطلات التى تبعدني عنه. قضيت يوم العيد ساهمة. أمي تظن أنى مشتاقة لزوجي.. تحلم أن أعود إليه. فى صباح شم النسيم جلست معها فى الشرفة نراقب الأطفال يتقافزون نحو الحدائق. أبصرت فى وجهها الأسف وخيبة الأمل. تتمنى حفيداً يملأ حياتها ويعوضها عنك. لافائدة.. هل يمكن أن ألحق بك؟ الا توجد طريقة لأبدأ حياة جديدة؟ أشعر بالموت كلما صحوت من نومي.. ويصطخب صدري بأنفاس الحياة عندما أراه.

أحكى لك الآن دون خجل.. أراه قادمًا فتتسع حدقة عيني.. لاارمش لأحتسي ملامحه.. وأتحسس صوته.. ألقى بنفسى في دائرة جذبه لتحتويني موجاته الحانية الموجعة.. وأشحن طاقتي لأتجاوز لحظات الخسوف. يسرى دبيب خافت كالكهرباء فى ظهري فأرتعد قليلاً ثم أسكن.. ويتسلل خدر لذيذ فى أوصالي. افرح

بسريري.. أرقد على ظهري واغمض عيني.. يأتي من النافذة كطائرٍ ملائكى معطرٍ وشفيف.. يهبط فوقي فيداهمني دوار.. تغيم عيناى وتبللني قطرات من ندى الشوق والترقب.. أشعر بدبيب واهن ينقر فخذيّ.. اغمض عيني ليأخذني فى حضنه.. يقترب مني فأصعد إليه ليضمني.. أتشمم عبيره فأتبدد.. يستولي على مرافئي ويقتحم قلعتي فأستسلم لإيقاعه القوي الحاني.. حتى تأخذني الرعشة.

آه يا نصفي الضائع.. لم أكتمل إلا به.. يهل عليّ فتعتدل الصور أمام عيني.. نتبادل الشوق والوجد وترانيم المحبة دون أن ننطق بكلمة.. فتتفتح زهوري.. ويتضوع الجو بعطرها الغامض. يتركني مرغمة فأدخل شرنقتي. أراه فأخرج إلى دفئه. هل تغفر لى يا نور عيني أنى وقفتُ فى وجهك وسددتُ عليك كل الطرق؟ هل يعاقبني الله فيحرمني من تذوق ماء البئر العذبة التى حرمتك الشرب منها؟

أرى حلمًا يتكرر كل ليلة.. أقف على حافة بركان ثائر.. أنظر إلى الحمم تصّاعد من جوفه.. أشعر بحرارة اللهب تلفحني.. أبصر

غابة النار المشتعلة أمامي وسواد الهوة العميقة تحتي.. أرتعد فأنظر خلفي لأرى حريقا آخرَ قادمًا من بعيد.

١٣ سبتمبر ٢٠٠٩.

كأنه هو

فى شارع السوق المزدحم رأيته. الحناءة كتفيه الخفيفة ذكرتني. أبطأت خطوي. غاب عني فالحسر خرير الذكريات. قرب نهاية السوق وجدته فى مواجهتي. نظر لحوي مندهشًا ثم استوقفني بيديه. تأملته فى حياد. صاح فى ود:

- ألا تذكرني؟

بهزة خفيفة من راسي أنكرته. لكنه لم ييأس:

- أنت محمدي السّماديسي.صح؟

لم أعلق. مد يده ولمس كتفي فى مودة وسأل فى اندهاش:

- مالك يا أستاذ؟

تهتهتُ كأنى أحاول أن أتذكر:

- أصل.. أصل أنا.. آه!!

اتسعت عيناه وهو يأخذني إلى حارة جانبية قليلة الزحام وقال متوترًا:

- فيه إيه يا أستاذ؟

إزاء تصميمه على مواصلة الحديث قلت:

- اعذرني يا أخى، ذكرني بنفسك.

خف توتره قليلا وهمس:

- أنا اسماعيل.. اسماعيل همام.. زميلك فى المؤسسة.

سألته بصوت خشبي:

- أية مؤسسة؟

عادت الحيرة إلى وجهه، وهمس فى لهجة تذكيرية ناعمة:

- التى كنت تعمل فيها معنا.

قلتُ منكرًا:

- أنا لم أعمل فى مؤسسة من قبل.

صاح صارخًا:

- لا يا شيخ. لا أصدق!!

احتميت بنظرة بلهاء مغلفة بصمت وهو يحكي عن عملنا فى نفس الإدارة. أخذ يسرد حكايات ومواقف كان شاهدها، ومقولات اشتهرت بها بين الزملاء.. حتى الشتائم التى كنت أطوحها يميناً ويساراً نطقها مثلما كنت أفعل. ظل يتحدث حتى اشتد به الانفعال.. وأنا أنظر إليه فى جمود منتظرًا أن ينتهي لأمضي.

فى الثواني التى انطلق يتحدث فيها عن أيامي معه انفتح قمقم ذكرياتي، وخرج منه مارد صغير أخذ يثرثر بما كان بيننا.

تكلم كثيراً حتى بان عليه التعب. تنهد قائلاً:

- حاول تفتكر.

احكمتُ ملامح الإنكار البليد على وجهي وقلت مهوناً عليه:

- يا رااااجل.. أنت تتكلم عن أشياء لا أعرفها.. لعل الأمر اختلط عليك.. أنا أعمل مقاولا فى الصعيد.. لا بأس كلنا إخوة.

أخذ يتأمل ملامحي ثم صاح كأنه يفيقني من إغماءة:

- هل عرفت ما حدث للرجل الكبير؟

شعرت كأن ماكينة شفط عملاقة تسحب الهواء من حولي.. حركت يدي كأنني أبحث عن هواء..

ثم هززت رأسي كأنني لا أعرف شيئا عن الرجل، ولا أذكر ما كان بيننا من معارك.

بدا عليه عدم التصديق. سكت قليلاً، ثم باغتني بلكمة قوية:

- ومدام كاميليا. زميلتنا فى المكتب. هل تعرف أخبارها؟

لا أعرف كيف استطاع قلبي أن يواصل الدق.. لكني تصبرت. اقترب هامساً فى ود:

- لم أصدق ما قالوه.

بربشت بعيني ولم أنطق. هممت بالكلام، فواصل همسه:

- قلت لهم إنه كلام فارغ.

أحاطني رداء الصمت بإحكام. مددت يدي نحوه مسلمًا فنظر مرتابًا ولم يمد يده. استوقفني وأنا أهم بالتحرك وقال فى رجاء:

- بالله عليك.. أنا متأكد.. أرجوك.

خطر ببالي أن أتذكر وآخذه فى حضني. شيء ما حبسني فى خندق الإنكار.. ياه.. كم سنة مرت وأنا أتداوى سرًا بوصفاتي الخاصة؟ تنبت فى سطح ذاكرتي شعيرات من ذكريات أليمة فأنزعها حينًا وأهملها أحيانًا. أتدرب يوميا على رياضة المحو. أجتهد لأكبس ما أريد محوه فى قعر مخلاة الذاكرة.. فأنجح مرة.. وفى مرات أخرى تخزني بعض أشواك مدببة.

مددت له يدي فى حياد. لا أعرف ماذا بدا فى وجهي. رأيته يتراجع إلى الوراء خطوة.. ثم سدد نحوي نظرة غيظ تحولت إلى إشفاق وأسى.. وهز رأسه ومضى.

كفر الزيات فى ٢٣ يناير ٢٠١١.

لغة الكلاب

صرخ الضابط الكبير: خليك عِوج وتكلم عِدل. لم يرمش الولد. نظر فى هدوء إلى المقصات المذهبة التى تزين كتف الرجل اللامع وقال باستكانة: تحت أمرك يا باشا. قال الباشا: احكِ بأمانة.. لكن قسمًا عظمًا.. لو لوّنت فى الكلام. سكت لحظة، ثم أضاف وهو يضع خطًا عريضًا تحت كلماته: أرميك فى السجن.

*

بصراحة يا باشا الكلب عجبني.. نطيت السور.. ناديته فجاء مسرعًا يهز ديله.. كلمته ومسحت على رقبته.. زام وهدأ.. أخذته فى يدي. مشى جانبي كأنه صاحبي. خرجت من البوابة بحيلة بسيطة. قلت للحراس: أنا السايس الجديد. صدقوني لأنهم شافوا

الكلب الذى يخيفهم يتبعني باستسلام. لما بعدت عن الاستراحة شاورت لعربة نصف نقل وركبت مع الكلب فى الصندوق. دفعت عشرة جنيه للسواق. لما وصلت الحارة احترت.. من أين لى باللحم لأطعمه.. تأكدت أني تورطت. فكرت فى حل المشكلة.. قلت أبيعه.. بعته بمائة جنيه وخلصت من همه. أنت وعدتني يا باشا.. وأنا قلت الحقيقة.

*

شبك ذراعيه وراء ظهره.. وتمشى فى مكتبه الواسع. فكر فى الحكاية بتمهل.. الحراسة مُقصرة ويجب أن تعاقب.. لايصح أن تقتحم فيلا مدير الأمن ويؤخذ كلب الحراسة فى وضح النهار.. إنها فضيحة.. الحكاية وصلت للمحافظ الذى سألني ساخرًا: كيف آمن على نفسي وأنا أسكن بجوارك. رواية الولد مقنعة لكن اقترب فجأة فتململ الولد متوقعا أن يضربه ويعدمه العافية. لكن اللواء نظر فى عينيه نظرة أرعبته وسأله: أُصدّق ما قلتَه.. إلا حكاية أنك كلمت الكلب.. اشرح لي. احتار الولد وسيطر على رعشة أخذته، وهتف قائلا: أنا قلت الحقيقة يا باشا.. ناديت

الكلب..فأتى مسرعًا.. أمرته فجلس قدّامي. صاح اللواء: يعني إيه تكلم الكلب؟ قال الولد وقد تغير لونه وارتعد: والله أنا قلت الحقيقة.. حضرتك وعدتني وأنا حكيت بكل أمانة. دار الباشا عدة مرات فى مكتبه الواسع، ثم جلس ورفع سماعة التليفون. تحدث بكلمات قليلة هامسة، والتفت إلى الولد صارخًا بصوت هادر: غور من قدامي.

*

بحثت عن الولد. دخت حتى وجدته. رأيته ضعيف البنية شاحبًا وهادئًا. رآني أدخل الحارة التى تمتليء بعشش الصفيح. العيال أشاروا إليه فنهض متحفزًا. رآني فتمالك نفسه وصاح فى حذر: فيه إيه؟ الباشا بعتك؟ سألته: أى باشا؟ فقال: مدير الأمن. قلت: لاأعرف مدير الأمن.. لكنى سمعت.. البلد كلها تحكي عنك. ابتسم وقال: أنا تحت أمرك. قلت وأنا أتعمد طمأنته: نفسي أعرف حاجة واحدة.. كلمت الكلب ازاى؟ قال بسرعة: زى الناس. قلت بسرعة: هو الناس تكلم الكلاب؟ ظهرت علامات الغضب على وجهه، ثم تبعتها دلائل الحيرة. هم بالكلام ثم

احجم. بعد لحظة سكوت قال: أنا أتكلم مع الكلاب.. أعرف لغتها.. أناغشها. سألته أن يشرح لى فقال: من صغري أحس بميل للكلاب.. الاعبها.. أهمهم لها فتفهم ما أريده.. أسوقها أمامي فتنساق. الحيرة انتقلت من وجهه إلى وجهي. لم أجد ما أقوله. أخيرا قلت: لا أفهم. قال بعد لحظة صمت: موهوب. صحت: هه. قال: الباشا قال إني موهوب. قلت متسائلا: ضربك؟ قال: كنت خايف يضربني.. لكنه صرفني بعد أن حذرني: إذا شفتك تاني أسجنك.

وقفتُ كانى أنهى الموضوع وقلت: إذا كان مدير الأمن صدقك.. أنا لا أصدق. قام الولد وشد يدي لأجلس قائلا: استهدى بالله يا أستاذ. جلست متعشمًا أن أجد تفسيرًا. قلت: هيه. قال: الحل إنك تشوف بعينك.. آخذ كلب قدامك.. أناديه وأخاويه. سارعت مُرحبًا، موافق.. معى سيارة. قال: كم تدفع. قلت: ورقة بخمسين. قال: الأمر لله.. اتفقنا. قام. قلت: إلى أين؟ قال: نواحي الاستاد. عبرنا المدينة من جنوبها إلى شمالها. وجهني حتى وقفنا أمام برج تحت الإنشاء.

*

قال وهو يفتح باب السيارة: تفضل. نزلت فإذا الكلاب تحيطنا من كل جانب. نباحها اخافني. كدت أرجع لأحتمي فى السيارة لكنه جذبني لأكون بجانبه. اقتربت الكلاب وهى تنبح. انكمشتُ فاضحًا خوفي. أدركت أننى معضوض لا محالة.

نظرت لحوه فى استجداء. مد يده وأخذ يغمغم ويهمهم. سمعت صوته ينطلق فى تموجات غير مفهومة. هدأت الكلاب وأقعت قريبًا منه. بدا أنها تنتظر تعليماته. أشار بأصابعه فاقترب منه كلب أسمر مخيف.. هز ذيله وهو ينظر إليه فى استسلام. التفت لحو السيارة فتبعه. فتح باب السيارة فأسرعت آخذ مكاني أمام عجلة القيادة. جلس فقفز الكلب على حجره. لم أهدأ إلا عندما جعل رأس الكلب فى اتجاه النافذة. سُقتُ العربة لحو عشش الصفيح. اطمأن قلبي فقلت له: حلال عليك الخمسين. قال متسائلاً: والعشا؟ نظرت لحوه زاجرا فقال: عشا الكلب. أومأت موافقًا على ورقة أخرى. همس لنفسه: أبيعه بكرة. مصيره يرجع لصاحبه.. إلا إذا تسلسل.

*

اقتربنا فشعرت بود شديد نحو الفتى وتمنيت أن أصاحبه. المسألة تحتاج لكلام كثير. سألته فجأة: والقطط؟ قال: مفيش ود معها. سكت لحظة ثم هتف: إيدك على الفلوس. أخرجت ورقتين حسب الاتفاق ووضعتهما فى يده.

سرحت متفكراً.. كيف سأحكي الحكاية لأصدقاء المقهى.. هل يصدّقون؟ أنا صدّقت. خطر ببالي أن أسأله: أنا أخاف الكلاب والثعابين.. ما الذى يخيفك؟ لكنى تراجعت. نظر نحوي مترددا بين القول والإحجام. حزم أمره. قال بصوت خافت: أعرف ما يشغل بالك.. من أى شيء أخاف.. سأقول لك ولا تضحك عليّ.. اتفقنا؟ قلت: أوعدك. سكت، ثم هرش جانب رأسه بيده اليسرى. التمعت عيناه ثم كساه الخجل. شجعته: هه.. أنا سامعك. اندفع قائلاً: الفيران.. رؤية الفار ترعبني. همست: غريبة. واصل الكلام: وأنا صغير صحوت على فار يقرض أصابع رجلي.. فزعت من منظر الفار الهارب والدم الذى ينزف مني.. من يومها وأنا أخاف الفيران. سكت ثم واصل: أنا مقدر خوفك

من الكلاب. ساد الصمت ثم قال كأنه يكلم نفسه: الباشا صدقني لأنه طردني من المكتب من غير إجراءات.. لو أنا كذاب كان هرسني.. لالا.. هو لم يصدقني.. هو خاف مني.. ربما ظن أني ساحر.. المسألة أنى أحب الكلاب.. وهو يخاف منهم.

*

انتبهت فجأة إلى أن المكان يخلو من الكلاب. نظرت إليه متسائلا فى اندهاش فأشار بيده وهو يطلق همهماته الغامضة.. امتلأ المكان بالكلاب فتراجعت مذعوراً. طمأنني بهزة من يديه. تأملت أفراد الفصيلة التى احاطتنا كأنها تحمينا من خطر يقترب. غمغم وهمهم فجلست فى استرخاء. تأملت الكلاب بأحجامها المتفاوتة وهيئاتها المتنافرة.. فتذكرت كلامه عن فشله فى إطعام الكلب الكبير فسألته كيف يرعى كل هذه الكلاب. قال ببساطة: هى كلاب الحتة.. أكلها متوفر حولنا.. لانشغل بالنا بها. قلت له: ماذا قلت لها عني؟ قال بسرعة: قلت لهم صاحبي وحبيبي.. معك حصانة لو شافوك فى أى مكان. انطلق السؤال من فمي رغما عني. فوجيء صاحبنا بالسؤال فامتعض.. مجرد امتعاض.. فنبحت

جوقة الكلاب فى غضب. همت بالهجوم لكنه أشار إليها فهدأت. قال فى فخر: كلابنا تفهم فى الأصول.. تعرف كل واحد فى المنطقة وتحميه.. تلعب مع الصغار وتتحمل سخافاتهم.. تخيف الغرباء ولاتؤذيهم.. لا تبعد عن المكان.

لم يكمل الولد كلامه فقد وقفت الكلاب تنبح فجأة. نظرنا فإذا ثلاثة من الأغراب يقفون فى أول الحارة يترددون فى الدخول. أشار فهدأت الفصيلة واقترب الأغراب. ألقوا السلام ودخلوا فى الموضوع مباشرة. قال كبيرهم: نريد كلبنا الأسود. صاح: ريتس. اقترب الكلب الأسود منه وهو يهز ذيله. همهم صاحبنا فتراجع الكلب فى امتثال. صاح كبير الأغراب فى غضب: سأقتله إن لم تتركه يرجع معي. قال صاحبنا: اهدأ يا خال. نشرب شاى ونتفاهم.

*

تحول المكان إلى مقهى صغير. دارت أكواب الشاى وفناجين القهوة التركى واشتعل الكلام عن الكلاب وأحوالها. تعجب الرجل ذو العمامة الجسيمة من قدرة صاحبنا. هز الولد كتفيه

وقال: الباشا مدير الأمن قال إنى موهوب. صاح أحد الرجال كأنه اكتشف كنزًا: هو انت بتاع الكلب؟ هز الولد رأسه موافقًا وهو يضحك. قام الرجال وقمنا معهم نتبادل الضحكات. قال ذو العمامة: تسمح لنا بالكلب. قال الولد الكلب أمامك.. خذه. قال: لايمكن قبل أن تسمح له. وقف الكلب بينهما فى امتثال كأنه ينتظر التعليمات. قال الولد وهو يمد يده: ثمن أكل الكلب. مد الرجل يده بورقة بعشرين. أخذها الولد ومال على الكلب يهمهم.. انحاز الكلب إلى جانب ذي العمامة الذى ربت رأس الكلب فى حنو. مضى الضيوف بصحبة الكلب. أشار صاحبنا إلى الكلاب فأسرع ثلاثة منها ترافق الجمع المغادر إلى أول الحارة. هممت بالانصراف، فمد يده وقال مبتسمًا: حق المشاريب. كتمت لمحة غيظ كادت تعبر وجهي، ومددت يدي بورقة ثالثة.. أخذها وهو يصدر همهماته وهوهواته ليفتح الطريق أمامي للخروج.

كفر الزيات فى ٢٢ نوفمبر ٢٠١٢.

أنشوطة الوجد

عقدة أولى

أصبحت رئيساً للجامعة، واستغرقتني الاجتماعات الأكاديمية واللقاءات الحزبية. ولمّا وافق رئيس الوزراء على زيارة الجامعة، قررت أن أجهز له عرضا مبهرا. أثناء التحضير للزيارة طفتُ على الإدارات بصحبة أمين عام الجامعة. فوجئت بها أمامي تمد يدها للسلام. سألتها عن عملها فأجابت بحياء... قرأت فى عينيها ما كان بيننا فى لحة واحدة. لامست أصابعها كفي فأخذتني رعدة. تذكرت ابتسامتها الساحرة وجسدها الطيع اللدن وجموحها فى فضاء اللذة فانتفض قلبي. غادرتها أترنح. نظرة عينيها ولمسة يدها أشعلتا النار فى قلبي.. فى المساء تقلبتُ على وسادة من شوك مؤلم

فقمت أطارد خيالها وأسأل نفسي: كيف ظننتُ أنى شفيت من حبها؟

عقدة ثانية

جاهدت أن أنسى فلم أفلح. هاتفتها يائسًا فردت عليّ. انساب صوتها فى عينيّ معطرًا. بدا كحفيف ثوبٍ يمضي بعيدًا فى خفة. تابعت الحفيف حتى سكن. تحركت شفتاي بغير صوت. أتاني صوتها ناعمًا فأفقتُ لا أعي ما أقول. إيقاع صوتها الحاني يكاد يلقيني أرضًا. سمعتها تقول:

- انتظرك تتعشى معنا الليلة.

- من معك؟

- تعال لتتعرف على الجميع بنفسك.

أغلقت الخط بعد أن وعدتها بالحضور. دوخني صوتها وهو يؤكد فى نعومة:

- فى العاشرة.. لا تتأخر.

عقدة ناعمة

نزعوا محاليل الإعاشة من أوردة الحزب فسارعت بالانتقال إلى الحزب الذى أسسه الرئيس المؤمن. تقدمت بورقة عمل لتطوير أداء الحزب فضموني للجنة الإعلامية. وحظيت بشرف جلوسي إلى الطاولة التى تصدرها الرئيس. أثناء حديثه فاجأني بالإشارة إلى الورقة التى تقدمت بها فازددتِ حماسا، وأخذتُ أردد نصائحه الغالية التى تنم عن رؤية مستقبلية ثاقبة.

اغتيال الرئيس أربكني وملأ بالخوف قلبي. لكني أعدت ترتيب أوراقي بسرعة. فى اجتماعات الحزب ارتعش صوتي خوفًا على مصير الوطن. دعمت علاقتي بالرجل الكبير في الحزب. تعددت لقاءاتي به فى النادي. وبعد عدة شهور حظيت بزيارة عائلية كريمة زادتني قربًا منه وتعلقًا به. وعندما دعاني لزيارته فى قصره كدت أحلق فى سماء الرضا.

توليت العمادة وعمرى ثلاثة وخمسون عاما. لم أضيع وقتًا. تحدثت مع الرجل الكبير. همس لي بأنه لم ينس شجاعتي فى

اللحظات الحاسمة التى أعقبت اغتيال الرئيس. وطلب أن أوافيه بمعلومات عن علاقات المنافسين واتجاهاتهم الفكرية ليتمكن من دعمي. أقبلت على مهمتي بهمة واقتناع. واجتذبت أمين عام الجامعة. أقنعته بالانضمام للحزب. وتوسطتُ له ليصبح عضوا بنادى هليوبوليس. واستطعتُ أن أرتب موعدا بدا كمحض مصادفة بينه وبين الرجل الكبير بالحزب.

أسرّ لي صديقي الرجل الكبير بأنني أستحق الوزارة. ترأست مؤتمرًا علميًا جددت فيه الولاء لمشروع النهضة الوطني، وأشدت بدور الحزب فى تطوير الحياة السياسية، وانحزت بالكامل للسياسات الحكيمة التى تنتهجها القيادة السياسية. المنافسون قلدوني.. لكنهم لم يكونوا طبق الأصل.

عقدة البداية

تلك المرأة الفاتنة أذهلتني عن كل شئ. رأيتها لأول مرة عندما رافقت رئيس الجامعة إلى منزلها لنقدم لها واجب العزاء فى وفاة زوجها.. عميد كلية العلوم. تأملتها فى ملابس الحداد ففتنتني وانقلب حالي.. كأننى لم أعرف نساء قبلها. تقصيت أخبارها..

فعرفت أنهـا تعمـل فـى إدارة الجامعـة.. ولم تنجـب مـن العميـد الراحل.. ولها ابنة جميلة فى سن الزواج مـن زوج آخـر. افتعلـت مناسبة. هاتفتها وطلبت أن تسمح لى بزيارتها فى منزلهـا فوافقـت ببساطة. لم تكن ابنتها بالمنزل. جلست فى ثوب بسيط يـبرز فتنتهـا فارتبكْت. لم أسـتطع أن أمنـع نفسـي مـن تأمـل وجههـا الجميـل وجسدها المتناسق المضموم على كنوزها الثمينة. غرقت فى بهائها. رأيت ابتسامة ترحيب واسعة تزين وجههـا الرائـق. سـألَت وهـي تشير فى ود: مالك.. ماذا بك؟ ابتسامتها الساحرة أطلقتْ لساني. قلت لها بتردد: أنتِ. لم ترُد. واصلتُ بجرأة: أنت جميلة جدًا.. وأنـا مشغول بك منذ رأيتك. قالت: ظننتك جئت لتخطب ابنتي. قلـت باندفاع: أريـدك أنـت. فاجـأتني بنظـرة غاضـبة وقالـت بجديـة: حاسب.. بالحلال. فقمت أتعثر فى خجلي وأنا أفكر فى الحلال.

عقدة غليظة

لم أعرف كيف أبتديء. اخذت أتمتم وأتهته وأتعثر فى أنفاسي. أتخبط بين حروف الكـلام وتيـار الفتنـة الـذى يخـرج مـن عينيهـا الواسعتين ليلسع أعضائي. مكتب رئيس الجامعة يناوشني، وكرسي

العرش لايفارق خيالي. إنها تعمل فى إدارة الجامعة وتستطيع أن تدمر الممر الذى ستقلع منه طائرتي نحو المجد. كنت أطمع أن أحقق أقل خسارة ممكنة. رصدت مؤخر صداق كبيرًا لكى أسترضيها. كدت أتمزق بين عشقي لها وتوقي لرئاسة الجامعة والوزارة. الوقت ضيق.. ويجب أن أحسم أمري.

تعجبتْ عندما رأتني أحمل حقيبتي. قلت لها: سأقضي معك أسبوعًا. لاحظتْ ارتباكي فسألتني هامسة عما قلته لأولادي. قلت: مؤتمر لمدة أسبوع بالهند. ابتسمت ودفعتنى إلى حجرة النوم وهى تقول بمرح: ادخل نيودلهي.. واسترح قليلا حتى أطلب أبو شقرة ليرسل الغداء.

قضينا ليلتين فى هناء. تمرغنا فى العسل. عاطفتها المشتعلة تثيرني، وصوتها الناعم يلهب أعصابي. أضرمتْ موسيقى مُغوية وقامت لترقص عليها فأذهلتني. عرضت أمامي كل فنونها. برق فى رأسى خاطر.. هل تعرف أن أيامي معها قليلة؟ وإذا كانت تعرف.. فهل هذا سلوك امرأة تستشعر الخطر؟

الوقت يمر مسرعا فيزيد ارتباكي. أدفن توتري في صدرها الدافئ الوافر. بعد كل انتهاء أفيق. تسألني: مالك؟ أعض شفتي وأنقضُ على شفتيها. في اليوم الرابع تشجعت. أخذتها من يدها. في الصالون قلت لها: أريدك في موضوع هام. سمعتني وابتسامتها الساحرة تزين وجهها الجميل. أدور حول الهدف دون أن أخترقه. همست فجأة: أدخل في الموضوع. تأملتُ وجهها المضيء بالبهاء والفتنة فكدت أفقد شجاعتي. سقطت نظراتي إلى زخارف البساط تحت قدمي. قلت إننى مرشح لوظيفة رئيس الجامعة.. وإن بعض المنافسين علموا بزواجنا.. وقد يستخدمونه ليضيعوا عليّ الفرصة. رفعت وجهي نحوها متخوفًا. رأيت ابتسامتها فهدأتُ قليلا. قالت ببساطة: أتمنى لك التوفيق.. لن أكون عقبة أمام طموحك. فاجأتني كلماتها. قالت إنها سعدت بي.. وتقدر كرمي وعشقي لها. لم أتخيل أن تمضى المسألة بهذا اليسر. سألتها عما تراه من ترتيبات فقالت باختصار: المؤخر! قلت لها: عيني لك.. لك ربع مليون. قالت والبسمة ما زالت على شفتيها: فليكن نصف مليون. قلت بدون تفكير: خلاص.. موافق.

فى موعد العشاء جلستُ أتناول الطعام فى صمت. لم أستطع أن أنظر لحوها. فاجأتني بأن أمسكت يدى وقالت فى نعومة: مالك يا رجل؟ سنظل أصحاب.. فِكّها. نظرت لحوها فى خجل متوتر فإذا ابتسامتها الساحرة تملأ وجهها المستدير، وعرائس الرغبة تتقافز على ملامحها الفاتنة. قمت مأخوذاً. ملتُ عليها وقضمت شفتيها فتأوهت. سحبتها من يدها فتداعت على الأرض مستسلمة. هممت أن أجرها لحجرة النوم.. لكنها أغمضت عينيها.. وهمست بصوت مبلل بدموع رغبة جامحة: خلينا هنا. فغبنا عن النوم والصحو وطوتنا اللذة على السجادة الناعمة.

فى صباح اليوم التالى طالعتني بوجه جامد. أمرتني أن أحجز فى فندق لأقضي به الأيام الباقية على عودتي من الهند، وأن أوافيها فى المساء بالفلوس والمأذون. سرتُ منوَّمًا أستعيد تفاصيل ما حدث.. اللهفة والوجد والابتسامة الساحرة.. وارتشاف العسل المقطر ببطء.. التواصل على سرير المحبة والتمرغ على سجادة العشق الغجري والغياب عن العالم. غادرت عش الهوى فى ذهول. وفى الطريق هزّني سؤال كالكهربا الصاعقة: هل هى تعشقني أم تعشق جسدها؟

لم أستطع نسيان ليالينا معا، وما نعمتُ به من رقة ودفء ونعومة حانية. قدرتها على البذل أدارت رأسي. تعبيرها عن رغبتها العارمة ونشوتها الصاعدة إلى الأفق ليس له مثيل. وعندما زن السؤال فى رأسي: إن كانت تعشقني أو تعشق نفسها. لم أهتم بالإجابة. لو كانت تعشق نفسها ففى هذا العشق أذوب وأتبدد من النشوة. هى قطعة الحلوى التى تخليت عنها طواعية. آه.. اشتقتُ إلى عودها الهوائمي وعسلها الحضرمي الذى كان يتسرب إلى مسامي فيدغدغني بالرعشة والرضا.

فى الطريق إليها انتبهت. فلديها ضيوف آخرون لم أسألها عنهم؟ كيف يكون اللقاء معها وسط أغراب لا أعرفهم؟ ما جدوى الذهاب إذن؟ أوقفت السيارة فى شارع مجاور. خطواتي تباطأت. توقفت وهممت بالنكوص، لكن رغبتي فى رؤيتها طردت ترددي. العشاء لا يلزمني.. هى عشائي وعزائي وعذابي المقيم وحلمي المتجدد.. كيف تفعل بي امرأة واحدة كل ذلك.. هى ليست امرأة.. إنها كتيبة من نساء استولت على مجامع الفتنة،

ووعود المتعة، وجبروت الجمال الظالم الواثق، وحنان البذل السخي المعطاء، وعصف الرغبة الجامحة الدافقة.

ابنتها فتحت الباب، ثم أوسعت الطريق وهى تقول فى رقة: أهلاً يا عمو. أشارت إلى البهو الواسع.. فاجأني المشهد. كانت على عرشها.. لم أر غيرها. ملأتُ عيني من قوامها المصبوب بعناية صانع ماهر دؤوب. قامت بدلال.. تسبقها ابتسامتها الساحرة.. وقدمتني للضيوف الذين قاموا مرحبين. نطَقَت باسمي مشفوعًا بمنصبي الكبير فانتبهتُ للحاضرين، وبدأت أميزهم: رئيس إحدى الجامعات القريبة من العاصمة، ومدير أمن الجيزة، والمخرج الشهير المعروف بميوله الفرنسية، وكاتب السيناريو المتميز وزوجته مذيعة التلفزيون اللامعة، وعميد كلية التجارة، وأستاذ الطب النفسى الشهير.

شعرت بالحرج من وجود عميد كلية التجارة الذى ألتقي به فى اجتماعات مجلس الجامعة. لكني تفاعلت مع الحاضرين بسرعة. وسار الحديث ناعمًا فى شتى الموضوعات. عرجنا على الرياضة،

وتحدثنا عن نجوم الأهلى والزمالـك، ثـم تبادلنـا النميمـة الراقيـة بالتلميح الذى يذكر الصفات والوقائع ويغفل الأسماء.

شاركت فى الحـديث بتعليقـات قصـيرة حـذرة. بعـد حـوالي نصف ساعة تململ المخرج الشهير وصاح بمرح: لقد جُعْنـا، يبـدو أن عشاءكم وهم. ضحكت الشـمس المتصـدرة عرشـها في سمـاء البهو الذى أعرف تفاصيله وزواياه. انتظرت حتى توقفـت توابـع ضحكتها ثم قالت: إننا ننتظر الباشا.. سوف ينهض من النوم بعد قليل.

الباشا.. أى باشا الذى تتحدث عنه هذه المرأة. هذا الباشا نـائم عندها.. هل تزوجت هذه اللبؤة؟ وإذا كانت قد تزوجـت فلمـاذا رحبت بي ضيفًا على العشـاء؟ الا تسـتحي أن تـدعوني لأتنـاول العشاء مع غريمي؟ أىُّ فُجْرٍ هذا؟ لا لا.. لعله أخوها أو أبوهـا أو زوج ابنتها.. لم تحدثني عن أب لها أو أخ.. وابنتها ما زالـت بنتـاً.. كلمتها الطفولية.. يا عمو.. تؤكد ذلك.. من إذن هذا البغل الذى ينام عندها؟

كنت مستعدا أن أرى أى شخص آخر خلاف هذا الرجل.. حتى لو كان بواب العمارة التى تسكنها.. أما هذا.. فهو أكثر من طاقتي على الاحتمال.

أتى من حجرة النوم التى أعرفها جيدا، يرتدى روبًا حريريًا فاخرًا. حفيف خفه بالسجادة أعلن عنه، ونحنحته الخفيفة جعلتنا ننتبه. اقترب من الجلسة فهب الجالسون جميعاً.. أهلاً يا باشا. ابتسم الرجل ابتسامة لطيفة، وأومأ للجميع برأسه، وأشار بإصبعيه الذين يمسكان بسيجاره الشهير نحو حجرة الطعام. لم يصافح أحدًا فلم يشعر ببرودة يدي التى تجمدت، ولم يخص أحداً بتحية أو كلمة. تقدّمنا إلى المائدة ببطء محسوب، ثم جلس فى الصدارة. قمت منوّمًا وجلست على المائدة لا أدري ماذا أفعل أو ماذا أقول. إنه الرجل الذى.. الذى.. تذكرت كلماته الحاسمة لي: أمامك أسبوع واحد فقط. إما أن تعلن زواجك بها أو تطلقها.. هذه الأجهزة لا تعترف بالزواج السري. آه.. أدركت الآن حجم الخديعة التى أوقفت تدفق العسل فى أوردتي.. فتبددت النشوة وحلاوة الاكتمال.

كـم كنـت مغفـلاً وأنـا أنسـج الخيـوط الملونـة لكـى أحقـق طموحاتي. هل هذا هو المسئول الحزبى الكبير الداهيـة، الـذى عرفته وصادقته ودخلت بيته، ورشـحني وزكـاني، واسـتمعت إلى نصيحته ومشورته؟ جلستُ أمام الطعام ذاهلا. انتبهت إلى صوته يناديني. نظـرت نحـوه مندهشًـا. سـألنى بـود عـن أخبـار الجامعـة وبرامج التطوير ونتائج زيارة السـيد رئـيس الـوزراء. بعـد لحظـة صمت محسوبة بشرني بمنصب الوزير قريباً. لكن البشرى هذه المرة لم تدفع الرعشة فى كياني كما كانت تفعل من قبل.

عقدة الهاوية

أفقت على رائحة مُطَهِّر، ولون أبيض يكسو الجـدران، وأثـاث معدني متناثر حول السرير. حاولت النهوض فلم أستطع. رأسـى ثقيل. بحثت عن يدي فلم أجدها. حاولت تحريك قدمي فشـعرت بها مكبلة. فكرت أني مسجون. ماذا حـدث؟ قـررت أن أجـرب صوتي فسمعت سرسعة غير واضحة. أردت أن أسأل عما أنا فيـه فدارت بي الحجرة. استقرت الأشـياء بعـد دورانهـا. رأيـت شـيئا طويلًا مدببًا يقترب مـني. شـعرت بـوخزة أليمـة فأدركـتُ أن لـي

ذراعاً.. هممت بالصراخ فلم أقدر.. أحسست أنني أسقط فى جب عميق.. واختفى الضوء.

كفر الزيات فى ٣ نوفمبر ٢٠٠٩.

نجم غارب

تقفُ أمامى مُسمَّرًا. أنتظر أن تبدأ. يا أخي انطق. جئتَ مسرعًا ووقفتَ أمامي. مددتَ يدًا دافئة. لم تكد تلمس كفي حتى سحبتها كالملدوغ. ماذا بك؟ خلاياي تتململ داخل جسدي.. تكاد ترتعش. وأخيرًا جلستَ قبالتي. أرى وجهك من جانبه الأيسر. تلتفت لتحدثني فأرى وجهك بكامل بهائه يشع نحوي بدفء عجيب.

منذ رأيتك لا أستطيع السير فى الطريق. أرى الأشياء بالمقلوب.. السيارات تسير على ظهرها، والسائرون يمضون منزلقين على رؤوسهم. البنايات العالية تستقر على قممها المدببة. أغمض عيني خوفًا أن يندلق سكانها من النوافذ. أنت الوحيد

الذى أراه معتدلا. منذ أبصرتك والمرئيات تتشعب وتندمج.. تشحب وتتوهج. آلمتني عيناي والتهبت أذناي. تحولت خصلات شعري إلى إبر تُخِزُني. أخشى الوقوع أثناء سيري. كيف يحدث هذا بسببك وأنت لم تفعل شيئًا؟ ليتك فعلت. قدماي تحملاني رغم ثقل جسدي وهى راضية. ليتها تتمرد وترميني أرضًا. يدي اليمنى تتحرك بغير ضرورة فتهش ذبابًا افتراضيًا. اليسرى تبحث عن أي شيء تستند عليه كأن الشيخوخة أصابت جسدي فوهن. أزاول أعمالي اليومية بآلية كأنى مسلوبة الإرادة.

على باب المكتب الواسع رأيتك لأول مرة. تُحَدِّث مديرة المكتب بصوت خفيض. لم أسمع كلامك.. لكن إشارات يديك جذبتني. كنتَ تنظر نحوها بغير تحديق. لمعة عينيك شدتني، وطولك جعلك تنحني قليلاً لتسمعك. لو كلَّمتَني لانحنيتَ أكثر. عندما خطر ببالى ذلك اجتاحتني رعدة شديدة. كدت أُعنِّف نفسي لكني تخاذلت. مددت يدي لأضم أطراف الثوب على صدري فازدادت رعشتي. يا الله. رأيت نفسي منصوبة كتمثال غير مكتمل فى ردهة أحد المتاحف. كنت أقف قريبًا منكما بلا ضرورة فجررت قدميّ وجلست إلى مكتبي مأخوذة. تمنيت أن ينتهي الموقف وتذهب

لحالك. تذكرت مشهدًا عاطفيًا فارتعشت مدامعي. قررت أن أنهي الأمر فأخذت حقيبتي متجهة إلى الحمام. قبل أن أصل إلى الباب طلبت مني المديرة حل مشكلتك.. يا داهية دقي.

عدت من الحمام فرأيتك تجلس على مقعد أمام مكتبي في سكون. بحثت عن صوتي حتى وجدته مختفيًا وراء أسناني. همستُ: تحت أمرك. تحدثتَ شارحًا مشكلتك وأنا أتأمل ملامحك. بعد دقائق اكتشفت أننى أحدق فى وجهك وأسمع صوتك دون أن أتبين كلماتك أو أعرف مشكلتك. لعلكَ أدركت قلة تركيزي فأخرجت من جيبك ورقة مطوية وقدمتها لي. لمحتُ على وجهك ابتسامة ترحيب. ارتبكتُ وأنا أفرد الورقة. دق قلبي بقوة. خفت أن يكون توقيعي فيه حل لمشكلتك. هدأتُ قليلا عندما أدركت أن الحل يقتضي ترددك لاستخراج وثائق من دفاتر القيد النائمة فى الأرشيف. يبدو أننى تنهدت فى ارتياح أثار عجبك فأغرقني الخجل.

أسأل نفسى كلما خلوت إليها: ماذا يميزك؟ هل هو قوامك النحيف أو شعرك المفروق من اليمين؟ أو وجهك المثلث وشفتاك المزمومتان وذقنك المسحوبة باستدارة محكمة؟ أو لمعة عينيك

وابتسامتك المخنوقة الساخرة؟ أو صوتك العميق الآتي من بئر بعيدة الغور؟ أو الحيرة التى تتبدى على وجهك عندما يسقط شعاع نظرتك على وجهي؟ آه.. كأنك تصوِّب نظرتك بدقة لتستقر فى عمق دماغي، فأتمنى أن أستولي على شعاعك القاطع وأغرسه فى جوانحي.

ماذا دهانى يا حبيبي؟ ماذا قلت.. حبيبي؟! كيف أسمح لنفسي؟ هل أصابنى الخبل؟ هل لأنى وحيدة؟ هذه الكلمة "حبيبي" لم تخطر على بالي من زمان. نطقتها فذابت فى فمي كأنها قطعة حلوي. شعرت بدوخة لم تهاجمني من قبل. حمدت الله أنى كنت جالسة فلم أقع. غامت عيناي ثم هطلت الدموع. لا.. ليس هكذا يكون الحب. لا أصدق. ما أكثر المواقف التى مرت بي ولم أصدقها! ثم اعترفتُ بها صاغرة. لكن هذه.. كيف؟ هل هى صاعقة؟ الصاعقة تنقض فتقتل.. لكن هذه تُنبتُ الورد والعبير والرعشة والدموع.. وتُقصِي الخوف والتردد والعيب والخضوع. هى ليست صاعقة.. إنها.. إنها.. غيامة حبلى بالمطر والحنان والرقة والأحلام النابتة من ركام الذكريات المطموسة فى قاع رأسي المشوش.

ترملتُ مبكرًا. لم يمت ذلك الذى كان.. صرفته من حياتي بعد معركة استمرت سبعة أعوام. نسيته ونسيت شقائي معه. تفرغت لأمي وعملي. مشيت على شريط رفيع من حرير. أنظر أمامي دون أن أميز أحدًا. ارى الوجوه فلا يعلق أيها براسي. تتوالى الأسماء فلا أحفظ منها اسم. اكتفيت بدائرتي الصغيرة. رسمتُها مثلما كنا نرسم دوائر اللعب الطباشيرية ونحن صغارًا. كدت أضع فى شعري فيونكة ملونة إعلانًا عن رجوعي الطوْعي للطفولة، بعيدا عن شهوات الكبار وصغائرهم. ختمت على قلبي بخاتم "مغلق للإصلاح". لكنك فى غفلة منى أطلقت نظرتك النافذة لتتحول إلى قبضة عاتية.. تمزق مغاليق قلبي. آه من هذه القسوة الرحيمة.. التي فتحت نوافذي لأشرب من بهاء مُحيَّاك وحلاوة ابتسامتك وضياء رجولتك وفيض مدامعي.

جلس أمامي ثلاث مرات فقط.. لكنه أدخلني شرنقته وأحاطني بخيوطه الحريرية المتينة. استسلمت لملمسها الناعم الدافيء واستكانت خلايا جسدي لعطر وجوده بالقرب مني. جاءني فى المرة الأخيرة لتنتهي المعاملة بتوقيعي على الشهادة الرسمية.. واعتماد المديرة وختم النسر. رأيته قادمًا فاهتز جسدي برعشة.

آسرة. بحثت عن كلمات الترحيب فلم أعثر على أى مفردة تفي
بالغرض. فاجأني بابتسامة حانية. شكرني على تعبي معه. كنت
أفكر فى حيلة تعطل استخراج الشهادة لأحظى بلقاء آخر. لم
تطاوعني نفسى فى تعطيله. فكرت فى استدراجه ليحدثني عن
نفسه، وأشجعه على أن يلتقيني خارج المبنى الذى لن أحتمل كآبته
بعد أن يمضي. أخذت أطرقع أصابعي. لحظ توتري فسألني هامسًا:
مالك؟ قلت فى خفوت: متعبة قليلا. قال بلهجته الحانية: ألف
سلامة عليك. فاجأتني دموعي.. فغطيت وجهي بيديّ.. وحاولت
أن أتماسك. بدا الارتباك فى صوته وهو يقول: ليتنى أستطيع أن
أعمل شيئا يخفف عنك.. المشكلة أننى مسافر.. طائرتي ستقلع فى
منتصف الليلة إلى نيويورك. إجازتي انتهت ولا بد من العودة.

لم أره عندما غادر. كانت آخر كلماته التى سمعتها: ولا بد من
العودة. لا أعرف بالضبط ماذا حدث؟ لكني حين عدت من
إجازتي الطويلة طلبتُ النقل إلى فرع آخر لقربه من منزلي.
وهناك.. جعلتُ شُغلتي البحث عن مغاليق متينة.. أغلق بها قلبيَ
المجروح.

كفر الزيات فى ١٦ ديسمبر ٢٠٠٩ .

الحوض اللامع

اقتربت مني بمودة لم أعهدها. نظرت نحوها دهشًا. لم تقترب مني إلى هذا الحد من زمان. لمستْ ظاهر يدي برقة ثم همست بصوت يفيض أنوثة: بالله عليك.. وحياتي عندك.. أرجوك. سكتت دون أن تكمل. انتبهت لها بكاملي. وسددت نحوها نظرة تساؤل دون أن أنطق. قالت بحنان: أرجوك أن تراجع أستاذ الصدر الذى يسكن قريبًا منا.. سعالك يوجع قلبي. هززت رأسي متعجبًا: منذ متى تهتم هذه المرأة بشئوني؟!

غلبنا الصمت وعشش فى بيتنا لسنوات طويلة. ننام فى صمت ونصحو فى صمت مغاير من نفس الفصيلة. نتبادل الحوار بأقل قدر ممكن من الكلمات.. حتى أننا نستخدم رموزًا مضحكة لنقلل زمن التعرض الصوتي. رموزنا تشكلت ببطء مع جريان نهر الجفاف. يفيض الحديث قليلا فى حضور ابننا الذى يزورنا كل

حين مع زوجته وطفليه. ارتضينا، بغير اتفاق، بأن تتولى القنوات التليفزيونية عنّا عناء الحديث وصخبه. قد أتفاعل مع الحوار الذى يقتحمنا فأفشي رأيًا أو تعليقًا لايزيد عن ثلاث كلمات. فى بعض الأحيان أسمح لنفسي أن أسب بعض الضيوف المزعجين في برامج الثرثرة. إذا كانت جالسة قريبا فإنها تبتسم ابتسامة هادئة.. إما لائمة أو ساخرة أو مستنكرة. أنكمش على نفسي فى حركة رمزية مقصودة كأني أقول لها: لابأس أن أكسر القاعدة أحيانًا. هى تكسر القاعدة أكثر مني عندما تغضب. أما أنا فأبلع لساني وأداري صمتي بشفتين مزمومتين فى اعتذار مسبق. تضيق بصمتي مثلما أضيق بحديثها. تدربت على فنون الصمت لسنوات طوال. لعله صمت المقاومة أو المكابرة أو صمت اليأس المسترسل.

حاولت أن أصرفها عن موضوعاتها الأثيرة، وعن إمعانها فى تكرار سرد الوقائع المؤلمة لها وللآخرين. تتذكر واقعة حدثت منذ عشرين عامًا، فتستعيد تفاصيلها كأنها تحدث الآن. أراها مثل ترزي حريمي يمسك بقطعة قماش ينوي تحويلها إلى ثوب. تنظر إليها من أولها لأخرها طولا ومن هنا لهناك عرضا. تتفرس فى تفاصيلها، تقلبها يمينا ويسارا ثم تعدلها، تضعها على الظهر ثم

تعكسها. تمسك بالمقص وتضع طرفه على القماش ثم تغير رأيهـا. تعيد القماش إلى سيرته السـابقة ثـم تطقطـق بـالمقص. تنـوي ثـم تعدل. كل ذلك كلاما وليس فعلا. إنها تحكـي الحكايـة المكـرورة بنفس الطريقة التى يتعامل بها ذلك الترزي مع قطعة القمـاش. لا تفعل شيئا. تنتقلُ من فكرة إلى فكرة ثم تُسفّه كـل الأفكـار. وفـى النهاية ترمي بقطعة القماش بغير قرار. فى هـذه الأثنـاء تنثـر مـن فمها الجميل شتائم متعـددة الأحجـام تطـول القريـب والبعيـد.. العدو والصديق.. الأهل والجيران والسائرين فى الشارع.

سئمتُ من ذاكرتهـا الجبـارة التـى لاتسـتخدمها في أى شـيء نافع. فى البداية كنت أقول لهـا برفـق: دلـيني علـى سـبب واحـد يجعلك تحتفظين بهذه الحكاية التافهة طوال هذه السنوات. ترد بأن الحكاية آلمتها فى وقتها. اسألها: تأثير طويل المفعـول يعـني؟ تقـول وكأنها لا تسمعني: لقد ظلمـوني وبهـدلوني. أحاورهـا وأداورهـا وأحايلها. تسكت ثم تعيد نفس الحكاية بعـد عـدة أيـام. يـا سـتي ارحمينا. هذه المرة تقول: كان المفروض أن تأخذ بحقي فورا. أقـول لها إن الموضوع أتفه من أن يظل عالقا بذهنك كل هذه السـنوات. فى إحدى المرات ثرت عليها بشدة. لم تتوقع انفعـالي. بعـد لحظـة

صمت قالت: سأقول لك لماذا أحكي لك هذه الحكايات التى تظنها تافهة. ترقبت أن تفضي إلىّ بسرٍ عظيم. التزمتُ الصمت وهززت رأسي لأشجعها على البوح. قالت والغِل يقطر من كلماتها: أحكيها لكي تشعر بالذنب. اتسعت عيني دهشة.. وبدا الوجوم على وجهي.. وغصت فى كهف مظلم من سكوت. لم أجد كلمة أو ردا. كأنى شللت. يا الله.. حاولت الكلام فلم أستطع. ارتديت ملابسي وخرجت.

عدت بعد ساعات معتصما بصمتي. قررت أن أدرب نفسي على ممارسة تلك الفضيلة. بعض أصدقائي يظنون الصمت مع زوجاتهم جبنا. قلت لهم: بهذا المعنى فأنا أعترف أني جبان. التبدل الذى أصابني أخافني.. لكني صاحبته والتجأت للكتاب. لا أدري مَنْ الذى قال إن معاملة زوجته السيئة جعلته فيلسوفا.

ظننتُ أن تبدل أحوالي سيغير أحوالها. كنتُ واهما. لم تتوقف عن اللجوء لمخزونها المسجل على أشرطة مؤمنة ضد التلف. تتفنن فى إعادة إذاعة برامجها وحكاياتها القديمة.. وخاصة المؤلم منها. أجلس أمامها كتلميذ مجتهد.. شابكا ذراعي على صدري. أنظر إليها وكأني أسمع لها باهتمام.. لكني فى واقع الأمر لستُ

معها. لا أسمع منها حرفا واحدا. أفكر فى موضوع آخر يخصني.
كأن أفكر فى عبقرية الدكتور جمال حمدان، أو أسرح بخيالي فى
محمد عبد الوهاب، وكيف استطاع فى شيخوخته أن يتحمل وطأة
الذكريات التى عاشها فى عمره الطويل، أو لماذا ظل رياض
السنباطي عاما كاملًا يعمل لتلحين أغنية أم كلثوم البديعة سهران..
بينما لحّن قصيدة سلوا قلبي فى ست ساعات فقط. وأحيانا أغرق
فى تصور النهضة العلمية التى كان يمكن أن يقودها الدكتور
مصطفى مشرفة لو طال به العمر قليلاً. تبدأ الحديث فيكون همي
هو التقاط نوع الشريط الذى ستحكيه وتاريخه.. لأسافر بعيدا عنها
متفكرا فيما يعنيني. لا يخلو الأمر من محاولة لجرجرتي لأبدِى رأيا
انتهت صلاحيته.. فأهمهم بما يتناسب مع موضوع الشريط الذى
أعرفه جيدًا. تدريجيا اكتشفَتْ أن اهتمامي بحديثها مصنوع،
فتقطعت خيوط الكلام، وانسدت منابع البهجة التى كانت تضخ
ثرثراتها من قنواتها العديدة.

هكذا حل السلام وساد الصمت وتشكلت رموز التفاعل بيننا
ببطء يليق بشيخوختنا الفتية. كنا أضعف من أن يذهب كل منا إلى
طريق. فى هذا العمر المتأرجح على حبلٍ نسمعُ طقطقةَ تقطع

خيوطه.. لايليق بنا أن نفترق. سيتغامز علينا الأهل والجيران والأغراب الذين لا يشغلهم شاغل، ولا نرى تجلياتٍ لهمَمِهم غير طوفان من كلام يسد بالوعات السمع. يا إلهي.. أبعد سنوات الصمت يأتى الكلام. كانت عبارتها أطول جملة سمعتها منها منذ سنواتٍ لا أعرف عددها. هى تعرف بالطبع. وتستطيع أن تسرد رواية الدخول إلى كهف الصمت بالتاريخ والوقت والتفاصيل الدقيقة. ولكن من يسمح لها. إنها تثرثر مع صاحباتها معظم الوقت فى البيت عبر الهاتف وفي النادي. فلتحكي لهن ما تشاء.

فى كل جمعة آخذها قبل الصلاة بقليل إلى النادي. أركن السيارة بعيدا ونتمشى فى صمت. نصل إلى البوابة عند الأذان. أتركها فى صمت آخر نحو المسجد. بعد الصلاة يجتمع شمل الرجال فى الصالة الداخلية. ونترك نساءنا في الحديقة يثرثرن. أحفظ حكاياتها. وأظن أن صويحباتها يحفظنها أيضا. نتناول غداءنا فى المطعم دون أن نعبأ كثيرا بهن. لقد طلبن منا ذلك: دعونا نفعل ما نشاء فى هذا اليوم المفترج. نترك لهم حبل الثرثرة يتشعلقون فيه طوال النهار وبعض الليل. لكنهن لا يتوقفن عن الثرثرة فى البيوت عبر الهواتف.

استعاضت عن الكلام معي بالإنصات إلى ثرثرة المتحاورين على الشاشة اللامعة بديكوراتها الباذخة. انكسر حاجز الصمت عندما حدثتني بأكثر من كلمات ثلاث. من قبل.. كانت كلماتها منتقاة من قائمة محددة: الغداء جاهز.. تشرب شاى.. الأولاد على وصول.. فواتير الكهربا.. الطماطم غالية.. أختك طلبتك... إنها اليوم تتخلى عن صمتها. هل تخطط لتجذبني نحوها بحبال الكلام؟ وما هذه النعومة: أرجوك؟! لا أصدق. فى الأمر سر.

منذ شهرين هاجمني السعال واشتد مصحوبًا ببلغم كثيف. تناولت الأدوية المنفثة المعتادة. لم أر ضرورة للذهاب إلى طبيب. شعرت باسترخاء لذيذ عندما نطقت: وحياتي عندك.. بالله عليك. ثم.. ما هذه اللمسة الرقيقة على كفي؟ ماذا جرى لتنطق كلماتها مغموسة فى أنوثة افتقدتُها من زمن؟ أنوثة غادرتْها وهى تناطح الآخرين.

جسدي الذى تخشّب لسنوات تضامنا مع صمتي بدأ يتململ. دغدغني شعور معطر بالرضى. لاأصدق كل هذه الرقة والأنوثة وأرجوك وبالله عليك. ماذا يحدث بالضبط؟ هل أنا واهم؟ أم أننى ركنت إلى الجدار الذى أقامته عربونا للكلام؟ هل هى خدعة؟

ربما تريد شيئا.. وتستخدم حالتي الصحية كجسر لتعبره إلى مبتغاها. إنها تعيد استخدام أسلحة المرأة القديمة الجديدة التى تضحك بها على الرجل وتضحك منه.. الأنوثة والرقة والكلام الناعم.

ماذا تريد يا ترى؟ قررت الاحتفاظ بوجهي الخشبي والاختفاء خلف جدار صمتي المصفح. لمحت ابتسامة تعبر وجهها بخفة.. كأنها لا تريد الاحتفاظ بها. قررت الانتظار قبل أن اقع على أسناني. لم اشك أنها أدركت ما اعتراني من فيض أنوثتها المفاجيء. إنها الآن تفكر فى الطريقة التى تجهز بها على مقاومتي. قررت أن أستحضر جزءا من مخزون صبري وأدهن به مواضع التململ. برد توهجي فانطفأتُ. ارتديتُ ملابسي وهممت بالخروج. رأيتُها تهرع إلى حجرتها لتواصل ثرثرتها فى الهاتف. على الدرج قررت أن الاعبها حتى تفصح عن نواياها. خاطر ماكر جعلني استمريء نعومتها وأنوثتها التى أشرقت فجأة. قلت في نفسي.. فلأؤجل زيارة الطبيب عدة أيام لأنعم بقليل من الاهتمام. بعد عدة مساءات كنت فى طريقي المعتاد للخروج. مررت بمحاذاة غرفتها فسمعتها تضحك بدلال. أبطأت لغير ما سبب فسمعتها تقول:

وحياتك يا شوشو.. اقنعته.. ربما يراجع الطبيب اليوم أو غدًا على الأكثر. توقفت قريبا من الباب. طرطقت أذني فسمعت باقي الكلام. شعرت أنني وقعت في جب، وأن جدارا مصفحا من بلادة اكتنفني. سمعت صوت تنفسي لكني ملكت نفسي. اعتصمت بصمتي وهدوئي وواصلت طريقي.

أغلقتُ الباب بخفة ونزلت الدرج. وأخذت أفكر فيما يجب أن أفعله. لم يستغرق الأمر أكثر من سلالم الأدوار الثلاثة التي هبطتها ببطء. استقبلت هواء الشارع البارد فأخذت نفسًا عميقًا. نظرت يمينًا ويسارًا. لم أتوجه إلى النادي حسب اتفاقي مع الأصدقاء. توجهت إلى المقهى الذى قاطعته زمنا. رآني النادل فتحنجل حولي وأحاطني بعبارات الترحيب. أحنى رأسه فى امتثال ينتظر طلبي. طلبت شيشة تفاح وقهوة سادة مغلية، فصفق بيديه فى حبور، وأخذ طريقه بين المقاعد برشاقة، معلنًا طلبي مُنغمًا. جاءت القهوة والشيشة. أخذت رشفة قهوة وسحبت نفسا عميقا من الشيشة. قبل أن أنتهي من القهوة كان قراري حاسمًا. لن أذهب إلى طبيب، ولن أتناول دواءً، وسأحرص كل صباح على أن تسمع صوت سعالي المتحشرج المتقطع، وقذائف البلغم تتناثر مثل الدمامل على

صفحة الحوض البورسلين اللامع، متمنيا أن يصيبها غثيان يجعلها تتقيأ حنانها.

١٥ مايو٢٠١٣.

...محمولٌ

رأيتُني محمولاً فوق الرؤوس كما ينبغي لعزيز. ملفوفًا بإحكام في لفائفي البيضاء. مضمخًا بعطر نفاذ.. لعله أصبح شؤمًا لأهل بيتي. شباب الأسرة الأشداء يحملون الخشبة بامتثال، ويسيرون بتؤدة وتروٍّ.. فكأني أمشي على ماء من فرط عذوبة انسيابهم. رحلة ناعمة.. سلسة.. لا صراخ فيها ولا عويل. فهل يريد الإنسان أن يعيش أكثر من تسعين عامًا. إنها فترة كافية.. جربتُ فيها كلَّ الطعوم والمتع والأحاسيس.. واستمتعت بتنوع مذاقاتها. حيث لكل شيء مذاق. فللغدر والنذالة مذاق مر.. لكنه ضروريٌّ ليعادل حلاوة الفرح بالأبناء، والالتذاذ بالطعام الجيد والقبل المسروقة والمبذولة.

أنصتُ لدبيب الأقدام، وأرى الأتربة تتصاعد من بين أقدام المشيعين، وأسمعُ حفيف الجلابيب الصوفية وهمهمات المتحدثين فى همس. أعجب من حاسة سمعي. قبل أن أغادر كان سمعي قد تلف أو كاد. أشير لحفيدي الصغير ذي الخمسة أعوام.. أساله: ماذا يقولون؟ يبتسم وهو يشير إلى بعيد قائلا: كلام كثير لا أفهمه يا سيدنا الشيخ. أنهره: سيدنا الشيخ في عينك؟! يقول: آسف يا جدو. أقول له: أنا جد أبوك، ولست جدك. الصالة الواسعة تضيق بالعيال وأولاد العيال فى الأعياد. أحاول الاستماع إلى تفاصيل أحاديثهم فأميز بعضها ويتوه منى الكثير.

الآن وأنا أمضي محمولا.. أمشى على ماء الحزن الافتراضى. أستطيع أن أميز احاديث المشيعين. كثيرون هم. فكرت أن أعِدَّهم فاستسخفت الفكرة: ما الفائدة من معرفة العدد. البلد كلها تطلع وراء كل ميت.. ويعود كل واحد إلى بيته متنهدًا حامدًا أنه ما زال على ذمة الدنيا. آه كنت أفكر في سمعي الذى صار حادًا.. بعد الصمم الذى كاد يُذهِب عقلي، وكأن جهازًا هائلا تم تركيبه فى رأسي، به من الفلاتر والتوصيلات والقواطع ما يجعلني أميز

أحاديث الرجال وهمهماتهم الخافتة. تذكرت الآية: "فبصرك اليوم حديد". وفهمت أن سمعي أيضًا صار حديدًا.

أرى المشيعين وأميزهم جميعًا. أتفرس في ملامحهم. لاتهمني المشاعر المرسومة على الوجوه، فقد أصبحت أرى ما في الداخل. خفت أن أضحك فيفزع الناس. كتمت ضحكاتي بصعوبة واكتفيت بالابتسام. خطر ببالي أن أهرش رأسي. أدركت أن يديّ مقيدتان وشعري مُغطى ولايوجد مجال للحركة. قررت أن أتفرغ لمعاينة المشهد بالكاميرا التي تم تركيبها أمام عيني فتكشف كل الزوايا. هذا إخراج رائع. جعلوني في المنتصف تقريبا. ومع ذلك أرى من يسبقوني ومن يتبعوني. المشهد يتراءى لي في سلاسة. تعجبت من قدرتي على تمييز الوجوه والأصوات. جربت أن أعمل زوم على بعض الوجوه فرأيتها بوضوح. الملامح الخارجية والمكنونات الداخلية. لم أملك نفسي.. ارتفعت ضحكاتي. انتبهت وخشيت الفضائح، لكنى قلت لنفسي: الكاميرات والفلاتر والأجهزة المتقدمة التى تتيح لي هذه المزايا لن تغفل عن كتم قهقهاتي، فتركت العنان لضحكي وأنا واثق أنه لن يجاوز الخشبة.

فجأة قفز مشهد الوداع أمام ناظريّ. صحوت عند الفجر لكي أتوضأ للصلاة، لم أصل إلى باب الحجرة. وقعت على الأرض كأني أمثل مشهدًا للوقوع. ناديت بصوت واهن: يا اولاد. لم يسأل عني أحد. أفقت وهم يتناولونني بأيديهم على خشبة الغُسل. كان جسدي طيعًا. استمتعت بالماء الدافيء والصابون المعطر. العطر الذى غمروا به الأغطية البيضاء كان نفاذًا بأكثر من اللازم. ربما ظنوا أنه مناسب لوداع مهيب. هممت بالاعتراض على النوع؛ لكن شيئًا ما أسكتني. فقد ظننت أنهم لن يسمعوني. بدأت أستوعب ما حدث. لاشك أنهم اكتشفوا وقوعي عند باب الغرفة ففحصوني وهم يتشككون، ثم تأكدوا عندما أتى ابني الطبيب. من المؤكد أنه قال لهم وهو يدعك عينيه: البقاء لله.

سمعت حكايات ونوادر كثيرة عن ميتين. بعضهم كانوا يُبطئون فى الطريق إلى المثوى الأخير فيفسرها المتكلمون بأنهم خائفون من اللقاء. وآخرون كانوا يهرولون حتى تنقطع أنفاس حاملي الخشبة.. فيتحدث المشيعون عن تلهف الميت على دخول الجنة التى رآها رأى العين. وبعضهم كان يتسمر فى الأرض كجحش حرون ممتنعًا عن الحركة.. فترتفع أصوات الناس: الله أكبر.. لا إله

إلا الله.. ويحايلونه كطفل صغير رفض أن يمضي إلى حيث يعرف أنه سيأخذ حقنة تؤلمه. أرى مشهدي يمضي بهدوء ويسر. لابطء ولا سرعة ولاامتناع عن السير. الجو احتفالي بالدرجة الأولى. أشعر بالامتنان لكل من شاركوا فى الحفل. تغاضيت بترفُّع عن الذين سمعتهم يلوكون سيرتي بألسنتهم المسنونة. لم أتوقف لتمحيصها. وتجاوزت عن أولئك الذين كانوا يتعجلون العودة بسرعة لتناول طعام الغداء الذى تأخر كثيرًا. وابتسمت من بعض السائرين الذين كانوا مهمومين بإتمام موعد غرام بعد ربع العشاء الأول. ولم أوافق على مظاهر الحزن المبالغ فيها من بعض أولادي وأحفادي.

اقتربنا من الشارع الضيق الذى تقع فيه المقبرة فتذكرت نساءَ العائلة اللائى منعهن الرجال من مرافقة المشهد. تركت الرجال يتكدسون في الشارع الضيق وألقيت ببصري الحديد وسمعي الحاد حيث النساء يتجمعن فى المنزل البعيد في أقصى شرق البلدة. المنظار القوي الذى يرافقني جعلني أرى النساء يتحلقن حول صوانى الغداء الفاخر يلتهمنه بشهية. نسوة البيت يأكلن ببطء وتكاسل وعيونهن محمرة من أثر البكاء. وبعض النسوة يُصبرونهن

ويحثونهن على إتيان الطعام: البطن لا تحزن. للنساء ثرثرة محببة وأنا على هذا البعد، أراقبهن بشغف. سنواتي التى جاوزت التسعين لم تقضِ على جذوة الحنين لهن. يعجبني فى أثواب الحداد السوداء. يختلط بياض بشرتهن بسواد العباءات الكاسية. لم أستطع منع عيني من تأمل ما ظهر من أذرعتهن البضة وسيقانهن المصبوبة بإتقان. تأملت وجوههن فى شتى أحوالها. ورأيت وجوها لسيدات غاربات الجمال لم أرهن منذ زمن. وأرعشتني صبايا يتفجر الحسن والصبا والجمال من وجوههن الناضرة. أتتبع نظراتهن الحيرى التى تفيض بالتوق والشوق والرغبة فى الاكتمال.

أحسست بخبطة خفيفة. رجعت فورًا إلى الشارع الضيق. رأيتهم يضعون الخشبة أمام الباب بالضبط. تهيأ الشباب لفتح الصندوق. صاح أكبر أبنائي: انتظروا قليلا. اقرأوا الفاتحة أولا وادعوا بما تيسر. سكت الجمع وانهمكوا فى التمتمة بالفاتحة. شاركتهم القراءة. أشار ابني لوجهاء العائلة ليستعدوا لتلقي العزاء. ثم هتف باكيا: مع السلامة ياحاج. همهم الحاضرون جميعًا. لم أعرف ماذا يقولون. فجأة أحسست أن أيدى عملاقة تسحب الكاميرات

والمعـدات، وتفصـل التوصـيلات والقواطـع والكشـافات. سـادَ صمتٌ موحش، وحلَّ ظلامٌ كاسح.

٤ مايو ٢٠١٣.

طائر المساء

أجلس بالمقهى والنهار يستأذن فى الانصراف. أضع ساقا على ساق، وجسدي مسترخٍ فى مقعد البامبو المريح. أمسك فنجان القهوة بإصبعين.. الفنجان أقرب إلى فمي.. وعيني فى اتجاه الباب الزجاجى الذى فتح ببطء لتخرج منه سيدة تضخ عطرا وتسبقها هالة من ضياء. لا أذكر ماذا فعلت بالفنجان؟ ولا أدرى إن كنت رشفت القهوة أم رشفت من موجة الهواء المعطر التى هاجمتنى. المقهى يزدحم بالجالسين، بعضهم يثرثرون معا، والآخرون يحدثون أنفسهم دون أن تتحرك شفاههم. ما الذى جعلني أتأكد أنها جاءت من أجلي؟ لماذا أنا؟ ولماذا قمت من مكاني عندما اقتربت؟ وهل رأى الجالسون والسائرون هالة الضياء وغشيتهم موجة

العطر المسكرة؟ وهل ميزوا الألوان المتداخلة في هالة الضياء المدهش.. البرتقالي الشفقي والأزرق السماوي الموشى بالأبيض الثلجي؟

اقتربتْ كأنها تقصدني.. ولما أصبحت على بعد خطوتين انحرفت يسارا ثم واصلت كأنها تدعوني لأتبعها فأسرعتُ خلفها. دخلت إلى محل الملابس التى سبقتني إليه. اقتربت منها وتأملتها عن قرب..

يا رب هذا جمال أخافه.. فكيف ألمس هذا الجسد المرمرى؟ بل كيف أحتمل الوهج الذى يشع منه؟ وهج دافئ معطر موحٍ متواطيء يتمسح بي في نعومة قطة. جسد لا يمكن احتماله مستورًا بالثياب فكيف إذا تكشّف. يحتال فيملأ فضاء الرؤية دون تقحُمّ. العينان تكفياني.. فما بال هاتين الشفتين الظالمتين تضرمان النار في شغاف قلبي. لماذا تهرب عيني من جمال العينين لتقع على جمال أشدّ؟ حاولت أن أفر من سطوة الجذب المُعجِز للعينين فسقطت نظراتي على فضاء تزينه قدمان صغيرتان مرمريتان شاهقتا البياض لا تستطيعان الأختباء فى حذاء فضي.. وكأن قوة قاهرة سحبت

نظراتي لأعلى ببطء. رأيت ساقين من رخام وردي يشعان حرارة.. كأنهما مخروطتان بيد فنان بارع..

أبصرت ما جعلني كالواقف أمام فرقة مدججة بالسلاح، تسد عليّ الطريق، فلا أستطيع الهرب، ولا أقدر على التقدم. انسابت دموع الفرح من عيني فلم أقدر على منعها. رأيتني أقف أعزل دون غطاء يحميني من طائر الجمال الذى حط على كتفيّ وبين عينيّ وفى عمق قلبي المترع بالرعشة. أنقذتني ابتسامة مباغتة انطلقت من عينيها فأضاءت الكون، وأدفأت قلبي. امعنت النظر محاولا التثبت، فرأيت بقايا الابتسامة الكونية تلون شفتيها وخدها، وهى تستدير وتمضي متباطئة فى رقة. لم أعرف كيف سرت وراءها مسحورًا؟ قطعت بضع خطوات سريعة وواسعة فحاذيتها.. واتتني شجاعة كاسحة كأني صاحب حق قديم فسألتها:

- أين كنت طوال العمر الذى مضى؟

- دعني أسالك.. لم تأخرت كل هذه السنين؟

قبل أن أجيب رأيتها تقذف بحذائها الفضي من قدميها. سحبتني من يدي وصعدت إلى المسرح الخالي وراحت ترقص على أنغام

متداخلة تأتي من بعيد.. أصغيت فإذا هى خليط من دقات لدربكة مصرية وموسيقى سودانية وفالس غربي. وجدت نفسي أجاريها فى الرقص. كأن أصابعها نقلت براعتها فى الرقص إلى جسدي.. فاشتعلتُ حماسا وأنا أدور معها وأصابعنا متشابكة. كلما تغيرت النغمة تبدلت خطواتنا لتوافقها. تصببنا عرقا فجلسنا على أرضية المسرح الذى امتلأ بجمهور أخذ يصفق بحرارة.. أخجلتنا الحفاوة فقمنا نرد التحية بالحناءات متتالية. قبل أن يغادر الجمهور أمسكت بيدي جيدا.. راقبتها وهى تصعد لأعلى. وجدتني بجوارها نسبح فى فضاء المسرح ونراقب الجمهور.. تعجبت من الخفة والسلاسة التى نتحرك بها. لم أعرف إلى أين نذهب. نظرت إليها فأشارت إلى القبة فانفتحت ببطء. تسربنا إلى فضاء يزينه قمر فى المحاق.. غاظني أنه منبعج.. لكنه كان ينير الشوارع والبنايات بما يكفي لمتابعة المدينة الساكنة. مضينا نستكشف الشوارع والتقاطعات والميادين. حاولت أن أكلمها لكن الهواء صار مصفحًا فاكتفيت بالمراقبة. استخدمت نظراتي وضغطات أصابعي لتعرف الأماكن التى أريد رؤيتها. السكون يلف كل شيء. بعد عدة دورات رأيت المدينة تصحو فأخذتني النشوة. خطر ببالي أن أسبح منفردا في الفضاء.

حاولت أن أخلص يدي من بين أصابعها، فحذرتني بنظرة صاعقة، لكني لم أمتثل. هويت بسرعة فارتعبت. أفقت على الأصوات العالية التى تحيط بي.. لكنى لم أميز كلمة واحدة. أحسست أن قلبي ينقر فى صدري بقوة. والأسى على فقدانها يغمرني. حاولت أن أحرك ساقي فلم أستطع. اكتفيت بنظرة واحدة إلى فنجان القهوة الذى ما زال في يدي.

كفر الزيات فى ١١ أبريل ٢٠٠٩.

تلصص

لا القهوة عدلت مزاجي، ولا الشاى. فتحت صفحتي على الفيس بوك وكتبت تعليقا على ما يجري فى الشارع السياسى فرأيته سخيفًا بلا معنى. امسكت بالقلم لأكتب فوجدتني أتهته كأني تعلمت الكتابة للتوّ. امسكت بالصحيفة فرأيت الحروف متباعدة كأنها تأبى أن أقرأها. مددت يدي إلى أقرب رف بالمكتبة وسحبت كتابا. فوجئت أنه يروي جانبًا من تاريخ العصر المملوكي.. فألقيت به وأنا أتمتم: زهقنا من المماليك. قمت لأتمشى فى صالة الشقة فوجدتها ضيقة تكاد تخنقني. ارتديت ملابسي وخرجت. على كورنيش النيل رأيت المراجيح وباعة الألعاب البلاستيكية الرخيصة وأكشاك اللهو تزدحم بالصغار. الكبار يأخذون جانبا يراقبون منه أولادهم الذين يمرحون ويلعبون بجدية. باعة المصاصات والجيلاتي وسندوتشات الكبدة والحلويات

يتشرون على الرصيف المحاذي للكورنيش. اليوم هو ثالث أيام العيد. الزحام شديد، والسيارات تسير ببطء، والمتزاحمون لا يهتمون بها ولا يريدون أن يفسحوا لها الطريق. الزحام أبطأ خطوي، فأخذت أتأمل المشهد.

البنت التى تقف على طاولة بنادق الرش.. هي سيدة صغيرة. تغطي رأسها بطرحة تكشف نصف شعرها المصبوغ بالأصفر المتدرج إلى الأحمر. تقف على مدرج خشبي صغير، يجعلها تعلو على كل من يقف أمامها. تميل لتقدم البندقية للشاب فيندلق ثدياها من تقويرة الثوب الواسعة. تتباطأ لحظة لتمنح الشاب فرصة ليتأمل كرتيها المكتملتين فى فضاء صدرها.. ثم تمد يدها لتأخذ النقود.. وبإشارة من إصبعها يدفع الشاب علاوة إضافية وهو راضٍ. تعتدل لتتركه ممسكا بالبندقية ليحاول تفجير كرات البمب المعلقة. تصفق البنت بيديها ملتفتة إلى المارة ليسيل صوتها الناعم ببحة متماوجة: قرب قرب من درب شكمبة..فرقع بمبة واكسب لعبة. تراقب اللاعب بطرف عينها.. فإذا أخفق أغوته بكلمة واحدة مغموسة بعسل خفي: دور كمان. فإذا قبل منحته الحناءة أطول من الأولى. وإذا رفض التفتت للتالي. فى لحظات

الانتظار تعطي ظهرها للمارة وتنحني لترتب الجوائز التى تغرى بها الزبائن.. فتتحدد تفاصيل جسدها المحبوك فى عباءة بوسط مخنوق. تعتدل ثم تعاود الانحناء فى إيقاع منضبط. تتمايل ثمارها الشهية على فرعها الناضج.. فتتكاثر العيون المتطلعة.. وتمتد الأيدي الراغبة إلى بنادق الرش تود إطلاق المكبوت فى ضغطة الزناد.

طالت وقفتي فخجلت من نفسى، وحررت خطواتي إلى الأمام. تأملت وجوه الأولاد والبنات. لهفة ارتشاف المتعة حتى آخر قطرة تلمع فى عيونهم. يتعابثون ويتخاطفون الألعاب ويتشاحنون ويضحكون. تختلط صيحاتهم بالأصوات الزاعقة لخليط من المغنين والمنادين على بضاعتهم المرصوصة بإغراء. مررت على النصابين الذين يغوون الصبية بألعاب غالية لا يمكن أن يكسبوها. تأملت وجوههم.. لهم نفس السحنة.. النظرة الذكية، والابتسامة الغامضة، والحركة السريعة لليدين، والنطق السريع للكلمات، وعبارات الترحيب المبطنة بتحذير خفي. تجاوزتهم إلى رائحة الطعام الجاذبة حيث باعة الكبدة والمخ.. منظر الباعة الجهمين.. وأيديهم الملوثة ببقايا الطعام أصابتني بالقرف.. وتعجبت من الصغار وهم يقضمون الأرغفة المحشوة بنهم.

عدت بناظري إلى حيث البنت التى ترخي حبل الأمل ثم
تشده.. فلم أتبينها. يبدو أني ابتعدت كثيرا.. شعرت أني مشدود
إليها.. لكنى مضيت فى طريقي. بعد عدة خطوات عبرت الشارع
ثم عدت فى اتجاهها. عندما حاذيتها أخذت أراقبها من الناحية
الأخرى للشارع الواسع. تململت فى مكاني مترددا ثم عبرت
الشارع واتجهت نحوها. فكرت أن ألعب. مددت يدي فنظرت
نحوي مندهشة. تراجعت قليلا.. فرأيت الواقفين يتعجبون.. يبدو
أننى صرت شيخا كبيرًا.. ضحكت محرجا وتزحزت خطوتين.
رأيتها تؤدي عملها بآلية. تأملت وجهها فتبينت فى ملامحه إرهاقًا
تحاول أن تخفيه بابتسامة واسعة. سألت نفسي عما شدني نحوها
فلم أجد إجابة. لاحظت أن الشباب يتزاحمون، ويبعدوني برقة.
خرجت من دائرة المتزاحمين لأراقبها من بعيد. غزا وجهها القلق
وأخذت تتلفت كمن تبحث عن شيء. بعد قليل تهللت ملامحها
وهي تمد يدها لتأخذ بيد فتاة صغيرة لتصعد بجانبها. الشبه بينهما
واضح. لكن العود الغض للأخت الصغرى لم يكن يحمل ثمارا.
انفلتت السيدة الصغيرة وتوارت فى دروة خلف النصبة. تحركت
قليلا لأتابعها فى مكمنها. انهدّت على الأرض وهى تنفخ فى

زهق.. وأخذت تلم شعرها الذى تبعثر على كتفيها رغم الطرحة. مدت يدها وفتحت لفة صغيرة. بدأت تأكل فغمرني خجل. التفت إلى البنت الصغيرة فرأيتها تقلد أختها، وتدعو اللاعبين إلى المكسب بنفس النداء المنغّم. صوتها الطفولي كان مسطحا بغير المحناءات.. تماما مثل جسدها. تحاول تقليد أختها بلا فائدة.. ولم أقدر أن أمد بصري لأمعن النظر فى الوجه الذى جذبني.

أخذت أدور حول نفسي.. لا أدرى ماذا أفعل. فكرت فى فراشي الشاغر، وبقايا الطعام التى تملأ الحوض، وقوافل الصراصير التى تمرح فى أرجاء المطبخ. انتبهت إلى ملابسي المتسخة وهاجمتني رائحة العرق. خجلت من منظري. قررت أن أعود لأستحم وأغيّر ملابسى. استدرت عائدا، لكنى توقفت بعد خطوتين أو ثلاثة. التفت إلى النهر.. فرأيت قرص الشمس يتداعى، متوهجا بالحمرة، وراء الأفق. نظرت إلى ساعتي.. ساعة واحدة تفصلني عن الموعد. أسرعت إلى المحطة لأقضي الوقت المتبقى فى مراقبة المغادرين.. قبل أن يأتى قطار القادمين.

كفر الزيات فى ١٣ أغسطس ٢٠١٣.

محمود عرفات

الحاصل على جائزة الدولة التشجيعية فى الآداب عام ٢٠٠٥م
عن المجموعة القصصية "على شاطئ الجبل"

عضو اتحاد كتاب مصر.

عضو نادى القصة.

عضو الجمعية المصرية للسرديات.

الإصدارات:

"مقام الصبا" رواية، صادرة عن ابداع الحرية ٢٠٠٢م

"على شاطئ الجبل" قصص،

طبعة أولى صادرة عن ابداع الحرية ٢٠٠٣م

طبعة ثانية صادرة عن هيئة الكتاب ٢٠٠٩م

"مشمش الرابع عشر" رواية،

طبعة أولى صادرة عن ابداع الحرية ٢٠٠٥م

طبعة ثانية صادرة عن دار الآداب ٢٠٠٩م

"المريدون" قصص، صادرة عن دار الناشر ٢٠٠٩م

للتواصل مع المؤلف:

٠١٠٠٣٩١٢٥١٥ هاتف محمول

e-mail : mah_arafat@yahoo.com

المحتويات



ISBN 978 977 468 573 6
9 789774 685736